الباب الثالث

القومية الإسلامية ووحدة المصير الإسلامي

obeikandl.com

obeikandl.com

القومية الإسلامية ووحدة المصير الإسلامي

كانت الحرب العالمية حدا فاصلا للنزاع القائم بين دول الغرب الاستعمارية وبين تركيا ، اذ قذفت القوى الاستعمارية ما تبقى من دول العالم الاسلامى المستقلة استقلالا ذاتيا فى بوتقة التبعية الغربية ، وكان زحف القوات الأوروبية ، على فارس متمما لعملية اخضاع المارد الاسلامى ، وقضاء على حريته السياسية ، فتهاوى هذا التمثال العملاق ، وخفت صوته •

اعتقدت الدول الغربية أنها وضعت يدها على غنيمة خالصة لها ، لا ينازعها أحد فى التصرف فيها ، ولا يقف فى طريقها أدنى العقبات ، فقيادة شعوب المنطقة ستكون سهلة ، لأن القوى الوطنية ماتت ، أو فى طريقها ، واستغلالها مباح ، فلن يستطيع الموتى دفاعا ولا احتجاجا •••• ثم بدأت الدول الغربية توزع الغنائم ، وفى هذه اللحظة بدا فى الأفق : أن القيود التى كبلت الشرق عشرات السنين تمزقت ، نتيجة تفاعل قوى كامنة فى طبيعة هذه الشعوب ، لا يعرفها الا من درس عقائدها ، وأخلاقها ، وتاريخها ، وغاص فى مجتمعاتها ، بحثا عن منطلق هذا الاباء للهزيمة ، وهذا الرفض للسيطرة مهما كانت قوة المستعمر وجبروته •

ارتفع صوت هذه القوى فتساوت مع الدول الغربية المدعمة بالسلاح ، فى دعوتها ارث هذه المملكة التى تهاوت فى الحرب العالمية ، وتطاولت هذه القوة فانتزعت لنفسها حق المساواة مع القوى الاستعمارية فى امتلاك هذه التركة التى خلفتها الحرب العالمية •••• لقد خرج من أودية الأنقاض التى خلفتها الحرب العالمية فى منطقة العالم الاسلامى ، شبح تمطط ــ كما تقول الأسطورة : مات الطائر وحرق ••• ثم •• خرج من التراب الذى خلفته النار طائر أسرع من الذى مات ــ فى كل مكان

باذرا بذور الثورة ضد الأطماع الاستعمارية ، داعيا الى الاحتماء بالعقيدة، وتجميع المسلمين حول أيديولوجية اسلامية جديدة لمواجهة الخطر القادم من الغرب ، والقضاء على دعوى الدول الغربية ، بأن لها حقا فى ارث هـذه التركة التى خلفتها السلطنة الاسلامية فى تركيا ، ويمكن أن تحدد ملامح هـذه الأيديولوجية ، بكلمة القومية الاسلامية ، ولكن ما هى القومية الاسـلامية ؟

يحاول البعض أن يعقد مقارنة — من ناحية التطور التاريخى — بين القومية الاسـلامية والقومية الأوروبية . اذ يذهب الى أن القومية الاسلامية تسير فى خط يشـبه التطور التاريخى الذى وقع فى أوروبا ، فقد قامت اتجاهات فى أوروبا لتحقيق مبادىء الثورة الفرنسية ، فدعت الى فكرة الدولة القومية الأوروبية ، وكان لهذه الدعوة أثر فى ازدياد الشعور بالوحدة السياسية ، والثقافية لأوروبا .

كذلك الحال فى هذه الحقبة التاريخية التى يمر بها العالم الاسلامى ، تأخذ الأحداث نفس المجرى الذى سارت فيه فى أوروبا ، فتحتل القومية مكان الدين — حيث كان المصـدر للنظم الاجتماعية . ومسـيطرا على المجتمع — لتشـكل حياة المجتمع فى نواحيها الثلاثة : الاجتماعيـة . والاقتصادية . والثقافية . وبهذه المقاومة سميت عملية البنـاء والتغيير التى تجرى فى الوقت الحاضر ، فى ربوع المنطقة الاسلامية ، المكنوبة ، « تأريب الشرق » : أى جعـله أوروبيا فى أفكاره ، وفى نظمـه ، وأسلوب حياته .

ولو كان الأمر على هـذا النحو ، لهان الأمر ، ولو اتبعت القومية الاسلامية طريق القومية الأوروبية ، ما كانت مشـكلة ، ولكنها اتخذت أسلوبا آخرا ، وهدفا مغايرا .

احتلت القومية الاسلامية مركزا وسطا ، بين قوتين نشأتا قبل الحرب العالمية فى الشرق الاسلامى نتيجة عودة المواجهة مع الغرب ، واتخذ نظامها الفكرى خط الاعتدال ، بين هاتين القوتين التى مالت احداهما الى

ناحية الغرب ، فاعتقدت أن نظمه نموذجا يحتذى ، وأسلوبه فى الحياة هدفا يرتجى ، فحاولت نقل الأشـكال الغربية فى السياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع الى المجتمع فى الشرق ، وهـذه القوة تمثلت فى الحركة القومية ، أما الأخرى فهى الاتجاه الدينى الذى عادى الغرب ورفض كل ما هو غربى ، وكافحه وبذل كل جهوده للحيلولة دون وصـول التقاليد الغربية الى المجتمع الشرقى •

خيم الجمود على العالم الاسلامى فى القرون الماضية ، فأصابه الوهن ، والضعف ، وسـيطرت عليـه أفكار صدعت بنيانه ، وفككت أوصاله ، ولم يظهر ضعفه واضحا الا عندما اتصل بالغرب ، بعد أن نشطت حركة المواصلات ، فظهرت محاولات للنهوض به ، وتبلورت فى اتجاهين متمايزين : حركات التجديد الدينى ، والحركات القوميـة ، واستمر نزاعهما حول أسلوب الاصلاح حتى الحرب العالمية • ولم يكن تأثيرهما فى القومية الاسلامية أقل من تأثير أوروبا لدى الحركات الوطنية فى الشرق ، فكلتا القوتين اللتين تصادمتا كثيرا فى زمن ما قبل الحرب بسبب اختلافهما حول أسلوب النهوض بالعالم الاسلامى ، انضمتا الى بعضهما ، ووحدتا جهودهما لمواجهة ضغط الهجوم الماثل أمام الأبصار ، الذى شنته القوى الغربية ـ أثناء الحرب ـ ضد العالم الاسـلامى ، فهما يمثلان الآن التيار الذى يتجه الى تجديد القوة العالمية للاسـلام • ويحاول صبغ التيارات الأجنبية بصبغة محلية ، فقضية « تأريب الشرق » ـ التى اعتقد المراقبون بدء تنفيذها فى زمن ما بعد الحرب ـ تحولت اليـوم الى صبغ المبادىء الأوروبية بصبغة شرقية ، فهى لا تقبل النظم الغربية ، ولا التقاليد الأوروبية كما هى ، بل تضفى عليها ما يجعلها ملائمة للظروف الاجتماعية فى الشرق •

لا تمثل الحركات الوطنية باعتناقها الأيديولوجية الأوروبية مشكلة قومية ، فالنظريات والمذاهب العلميـة ، وأسلوب الحيـاة ، والمبادىء السياسية ، اقتحمت ـ وما زالت ـ الشرق الاسلامى ، حاملة الطابع الأوروبى ، الا أنها تتحول ـ وان كان هـذا يسير ببطء ـ الى اسلامية

شرقية ، فقد غير الوطنيون شكلها — دون مساعدة من قوى خارجية — وبدلوا هيأتها ، فبدت مخالفة لما هي عليه في أوروبا • وعلى سبيل المثال : تختلف الديمقراطية الاسلامية اختلافا كليا عن الديمقراطية الغربية ، وان تشابها في الشكل ، ودعاة كلتا الديمقراطيتين مختلفون كل الاختلاف في التفكير ، ومتفاوتون في النظرة الى الحياة ، وذلك أمر له أهميته في توضيح الفرق بين عالمي الشرق ، والغرب •

اذا تطرق الحديث عن القوميين الاسلاميين في الشرق ، فيجب أن يعرف القارىء أنهم : انتشروا في المنطقة الاسلامية ، وهم يمثلون العناصر التي يقوم عليها البناء الجديد للدولة ، تعددت فرقهم ، وتمايز أسلوب حياتهم ، وتنوعت أساليب دعوتهم ، وتباينت مصالحهم الخاصة ، ولكنهم يعملون في اطار واحد ، ويتجهون نحو هدف مشترك ، ويجاهدون لتحقيق مبدأ عام ، وهو تكوين دولة حديثة ، مصبوغة بصبغة اسلامية ، ولم يجمعهم على هذا الهدف الا شعورهم بوحدة المصير ، فهم شركاء في المحن ، يكتوون بنارها ، وتثقل كواهلهم جميعا أيامها القاتمة ، ولحظاتها الحرجة ، وآلامها التي تجد آثارها على ملامحهم ، وتسمع رنينها في أصواتهم ، وتلحظ وهجها في مآقيهم ، وتقرأ عن ذلك كله في تاريخهم المشترك •

أيقظت الوحدة الفكرية للاسلام ، في جماهير هذه المنطقة الشعور بوحدة المصير ، فانبثقت تلك الحركات المتعددة ، تستهدف عودة القوة العالمية للاسلام ، وقد جمعها حول هذا الهدف الموحد : العقيدة المشتركة التي جذبتهم — وما زالت — نحو غاية واحدة ، على الرغم من اختلاف أسلوبهم ، وتباين طرقهم للوصول الى هذه الغاية ، وقوى هذا التقارب اشتراكهم في معاداة الغرب ، وانتشار هذه العداوة للقوى الاستعمارية في كل مكان في الشرق ، فأينما وليت وجهك ، قابلتك مظاهر البغض للدول الأوروبية ، ولمست أثر ذلك في جميع نواحي الحياة الفردية ، وفي أسلوب الدعاية لدى جميع الهيئات السياسية والاجتماعية •

أضفت الحيوية التى أحست بها الجماهير نتيجة توحيد الأهداف الرامية الى احياء الاسلام ــ كواجهة للدولة الحديثة ــ ، قوة على الشعور بوحدة مصير المسلمين ، ولا نغالى اذا قلنا : انه كان أقوى من الميول الانفصالية التى لعبت دورا كبيرا فى انشـــاء الدول الحديثة فى العالم الاسلامى ، فقد قادت شعوب الشرق الاسلامى نضالا ــ انتشر على كل رقعة من بقاعه شرقا وغربا ، وشمالا ، وجنوبا ــ ، ضد الدول الاستعمارية كى تحافظ على وجودها ، وتحمى الشكل السياسى الذى اكتسبته بعد الحرب كدولة ينبغى أن تباشر سيادتها ، ساعد هذا النضال المشترك ضد قوى أجنبية اجتمعت على استغلال هذه المنطقة ، واستنفاد ثروتها على ظهور قوى قوية ، كان لها أثر فى التماسك الجماعى ، وكسر حدة الاحتكاك الذى يمكن أن يقود الى نزاع شعوبى .

لم يكن لهذا الترابط ــ الذى كان نتاج الوحدة الفكرية والثقافية لشعوب هـــذه المنطقة ، واستراتيجية حتمتها ظروف الدفاع عن الأوطان ، ضد عدو مشترك ــ علاقة بفكرة الوحدة الاسلامية التى دعا اليها سلطان تركيا فى فترة ما قبل الحرب العالمية ، فلم يقم على أساس خلق مملكة اسلامية كبرى ، تجمع شـــعوب العالم الاسلامى ، داخل حدود واحدة ، وتكتلهم كتلة واحدة فى مواجهة العالم الحديث ، كما بدا ذلك فى حركة الوحدة الاسلامية ، التى ظهرت قبل الحرب ، فقد اختفت هـــذه الدعوة الى الوحدة التى أريد لها أن تقوم على أسس سياسية ، دون أن يكون لها من الفروض الفكرية المسبقة التى تساعدها على بناء دولة اسلامية حية ، وسلم بعدم جديتها عندما أصبح دعاتها فى وضع لا يستطيعون فيه الامتناع عن مواجهة المسلم أخاه المسلم فى الميدان ، أشهروا السلاح فى وجوه بعضهم ، وأراق المسلم دم أخيه ، فقطع أوصال الاتحاد بينهم ، ومنع وصول شرايين الحيـــاة الى جسم الوحدة الاسلامية ، فقضى عليها ، وكان العرب أول من أجهز عليها عندما ثاروا ، وحاربوا ، فى صفوف الانجليز ضد تركيا المسلمة . كذلك المسلمون فى الهند الذين كانوا ضمن دعاة الوحدة الاسلامية منذ أمد بعيد ، دافعوا عنها بكل ما يملكون من

حماس دينى متوقد ، هؤلاء المسلمون فتر حماسهم وانصرفوا عن الميدان ، ووقفوا مكتوفى الأيدى ، لم يتحركوا عندما دعا الخليفة الى الحرب المقدسة •

بات من المستحيل تحقيق قيام دولة على أساس فكرة الوحدة الاسلامية بعد ما محا كمال باشا أتاتورك عرش السلطان ، وقضى على الخلافة فى تركيا ، كذلك باءت بالفشل محاولة ظهرت بعد الحرب فى مؤتمرات القدس ومكة لاحياء فكرة الوحدة الاسلامية التى نادى بها السلطان قبلا ، ولم يستطع المؤتمرون تجميع الدعاة لتلك الوحدة •

ولهذا كله ظهرت القومية الاسلامية واحتلت مكان الوحدة الاسلامية • وكان نظام الفكر — أيديولوجيته — عند دعاة القومية الاسلامية ، يرقى الى توحيد الاتجاهات الدينية مع الحركات الوطنية ، مع الذين ظهروا على مسرح الأحداث كخلفاء للقوى الاستعمارية فى هذه المنطقة ، يتسلمون السلطة من الاستعمار ، بعد أن يشد رحاله ، وهذه أمنية وحدت كلتا القوتين — القومية الوطنية والقومية الاسلامية — للتعجيل بانتقال الحكم الى أبناء البلاد • ولكن اختلفت درجة تقارب وامتزاج القومية الاسلامية بالقوى الأخرى التى ظهرت فى أقاليم العالم الاسلامى ، ففى تركيا ، وايران ، تغلب الطابع القومى الوطنى الذى يتجه الى التقليد الأوروبى ، وان اختلفت درجة هذا التقليد زمنا ومكانا ، وهى السعودية ، والأجزاء البعيدة فى شمال افريقيا كان الطابع الاسلامى أقوى من غيره ، ومهما كان أمر قوتها فهى تمثل فى كل مكان اتجاها لربط عناصر التوجيه فى المجتمع الاسلامى ، حتى فى تركيا حيث قامت حركة متطرفة تدعو الى التحرير من قيود الدين ، ويبدو للمراقبين عن قرب : أن هناك مقاومة سرية ذات ثقل تقاوم الاسراف فى الدعوة الى الحرية الدينية ، وتعارض من يعتمد على المبادىء القومية ، وينبذ الشعارات الدينية ، ومن الجائز أن تعلن هذه الحركة عن نفسها ، وتخرج سافرة لومات هذا الرجل — كمال أتاتورك — الذى يمسك زمام الجمهورية التركية الجديدة ويشد عليه بقبضة من حديد •

وفى القاهرة عاصمة البلد الذى قطع فيه تأثير النهضة الأوروبية شوطا أكثر من غيره من البلاد الاسلامية ، وانتشر فيه التطور السياسى — على ما يبدو — حسب النموذج الغربى للديمقراطية ، فى هذه العاصمة يقوم مسجد بجانب البرلمان المصرى ، صمم بطريقة هندسية مطابقة لشكل البرلمان الهندسى ، ويبدو للناظر من أول وهلة اذا وقف وشاهد قبتيهما بجوار بعضهما ، أن هناك وحدة بينهما ، تربطهما برباط واحد ، هذا التجاور والترابط رمز حى لترابط قوى القومية الاسلامية ، وكان يمكن أن يكون لهذا الرمز تأثير أعمق وترابط أقوى فى أى مكان آخر غير بلد النيل ؛ حيث قامت مملكة اسلامية — تحت الحماية الانجليزية — تبدو مستقلة ، ولكنه استقلال ظاهرى فقط ، اذ هى تابعة فى سياستها لانجلترا •

كان هذا الاتحاد بين القوى — كما يرمز له تشابه بناء المسجد والبرلمان وتجاورهما — واضحا فى كل مكان فى أعقاب الحرب العالمية ، وهى الفترة التى اندفع فيها الكفاح ضد القوى الاستعمارية للوصول الى بناء جديد فى العالم الاسلامى •

ففى مصر اشترك الطلبة والمدرسون فى الجامعة الاسلامية « الأزهر» فى ثورة ١٩١٩ ، بل كانوا هم وقودها وقوادها ، خرجوا فى الشارع يتقدمون الجماهير احتجاجا على نفى زعيم القوميين سعد زغلول باشا ، ألهبوا الشعب حماسا وحركوا الشباب ، فكانوا — أى الأزهريون — شعلة الغضب التى أثارت العامة وحركتهم للثورة ، فكان ذلك ربطا للثورة بالمسجد •

وعندما حاولت انجلترا تحقيق الوصاية على العراق — من الناحية العملية — بضم حقول الزيت فى بلاد ما بين النهرين الى رقابتها ، كى تنشىء خطا متصلا ، يخضع لرقابتها بين البحر الأبيض المتوسط ، والخليج الفارسى ، وقف رجال الدين الشيعيين بجانب هؤلاء الذين كانوا ضباطا فى الجيش ، وساندوهم ، فاندلعت الثورة فى مايو ١٩٢٠ ، تلك

الثورة التى هددت سلطة انجلترا مدة ٦ أشهر • ونظرا لخروج انجلترا مرهقة من الحرب العالمية ، اضطرت أخيرا للخضوع أمام تلك القوى التى ساعد بعضها البعض للوقوف أمامها • كان تآزر القوى الدينية مع القوى القومية ذا أثر بالغ فى استسلام بريطانيا • وفى الفترة التى قاد العراق فيها كفاحا ضد انجلترا لرفع الوصاية ، وقفت القوى الفكرية الشيعية مواقف مماثلة مع الزعماء القوميين جنبا الى جنب ، حتى وصلوا الى الاتفاق مع انجلترا الذى خرج به العراق من وصايتها المباشرة ، وأصبح حرا ذا سـيادة على أرضه •

وفى الكفاح المرير الطويل الذى دار حول مسألة فلسطين كانت دوائر الفكر الاسلامى ظهيرا للشعب ، تسنده وتؤيده دون أن يوجه الفلسطينيون الى تلك الدوائر استغاثة أو رجاء • وقف المفكرون المسلمون ضد الدعوى الانجليزية واليهودية فى انشـاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، فدفعوا بذلك الشعب الى المعارضة ، فانتشرت بينه روح المقاومة ضد الدبلوماسية الانجليزية ، ودفعوه الى مناورة وقتال قوات انجلترا المرابطة فى فلسطين ، لأنها كانت تعمل على تسليمها لليهود ـ هكذا تصور العرب ـ ولم يكن أحد فى انجلترا يتصور أن القوميين الاسلاميين سيكون لهم هذا التأثير فى فلسطين •

أثبتت الأحداث فى فلسطين أن القومية الاسلامية استمدت قوتها من التعصب التقليدى للدين الاسلامى ، وأنها جمعت كل القوى تحت راية دينية ، ولا يخفى على المراقبين مدى تأثير تلك الراية على نفوس المناوئين للسياسة الغربية ، انها تدفع المسلم دفعا للتضحية فى سبيل مبادئه التى هى ـ كما يعتقد ـ جزء من حياته ، وتغرس فى نفسه : أن الموت فى سبيل تحقيقها شـهادة ، جزاؤها الجنـة ، وفى أى مكان فيها ؟ مع النبيين ، والصديقين ، والشـهداء ، والصالحين •

ان المحرك الأول للقلاقل العربيـة ، وثورات الشعب ضد المخطط الاستعمارى فى فلسطين هو الدين • ويبلغ الحماس الوطنى ذروته ،

ويصل الغضب الى درجة الغليان فى يوم الجمعة ، حيث يجتمع آلاف المصلين فى المسجد يستمعون الى خطبة الجمعة التى غالبا ما تكون موجهة الى اثارة العواطف الدينية فيهم ، فيخرجون غاضبين على أولئك الذين يتعاطفون مع الصهيونيين ، ويؤيدونهم فى اقامة وطن لهم على هذه الأرض العربية ، وقد فهم الزعماء السياسيون هذا الجانب ، فكرسوا جهدهم لايقاظ الشعور الدينى لدى المسلمين لخدمة الأهداف السياسية ، فاشترك علماء الدين فى الحركات الوطنية — وكان ذلك أحد الأسباب التى جعلت بريطانيا تفكر فى موقفها بالنسبة لانشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين ، فتحاول اظهار التعاطف مع الجماهير العربية — وكانوا قوادها ، فقد تزعم شيخ له مكانة فكرية ، وروحية فى المجتمع ، الحوادث التى وقعت فى سنة ١٩٣٦ م ، واستمد الفدائيون من هذه الزعامة قوة دفعتهم الى التفانى فى سبيل قضيتهم ، وعدم المبالاة بما يصيبهم ، لأنهم يعتقدون : أن الموت فى سبيلها شهادة يثاب عليها بالجنة ، ولم تهن عزيمتهم ، ولم تخر قواهم فى أحلك الظروف ، وأدق المواقف ، ولم يفتروا لحظة عن تذكر الله • والاتصال بعقيدتهم ، عن طريق أداء العبادات ، والاكثار من السنة ، وقراءة القرآن •

لقد روى أن أحد الفدائيين الذين حكم عليهم بالاعدام كان يقرأ القرآن عندما ذهب السجانون اليه ليقتادوه الى المقصلة ، ووصفته الصحافة العربية ودور الاعلام فى العالم الاسلامى بأنه مجاهد فى سبيل الله ، وأنه نال الشهادة التى يتطلع اليها كل مسلم فى سبيل الدفع عن دينه ووطنه « **ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم** » [١] ، وبهذا الأسلوب ارتبطت القومية الاسلامية بالحركات الوطنية ، ارتباطا لم يحدث فى أى فترة من تاريخ الحركة الوطنية ، فقد تقاربت الأيديولوجية الوطنية ،

---

(١) التوبة : ١١١ .

بالأيديولوجية الدينية ، تقاربا شديدا ، وبدأ التئامهما فى فسلطين واضحا بشكل لم يسبق له مثيل فى العالم الاسلامى •

قامت فى أعقاب الحرب العالمية حركات وطنية فى العالم الاسلامى ، جاهدت فى سبيل استقلال البلاد ، وبناء الدول فى هـذه المنطقة ، بناء حديثا ، وقد أدى ذلك الى مصادمات عديدة مع الاستعمار الغربى ، الذى بسط نفوذه على هـذه البقعة من العالم وزاد التوتر وكثر ، حتى أطلق على هـذه الفترة « فترة الكفاح فى سبيل الاستقلال » ، وقد أظهرت هـذه الفترة أكثر من مرة أن الاسلام ليس عبادة جوفاء لا أمل فيها ، وأنه لم يعد تلك المبادىء التى تعادى التطور ، أو أنه الشكل البدائى للحيـاة الانسانية البعيدة عن التأثير فى مجرى الأمور ، كما شاع ذلك فى فترة انحطاط الفكر الاسلامى ، بل انه أصبح عنصرا حيا يؤثر فى الأحداث ، عندما قرر علماء الاسلام تأييد الحركة الوطنية واضفاء صفة القدسية عليها ، ومنحوها رمز الدين ، فارتكزت على دعائم تمتد جذورها فى قلب كل فرد فى المجتمع ، وقد أدى ذلك الى اقامة علاقة خصبة وبناءة ، بين العناصر القومية والدينية ، وطغت هـذه العلاقة على جميع الأحداث ، حتى أن تاريخ العالم الاسلامى فى زمن ما بعد الحرب لم يكن فى حد ذاته شيئا آخر ، غير تاريخ مسطر بين سجلاته أخبار ، تبادل ، وتقارب الأيديولوجيتين الدينية والقومية •

وتعتبر المنطقة العربية أهم المناطق التى بدت فيها ظاهرة العلاقة المتبادلة بين القوى الدينية والقوى الوطنيـة وقوة تماسكهما ، لأن كلتا القوتين اللتين تجتمعان فى القومية الاسلامية متكافئتان ، ولأن : ما يجرى على الأرض العربية يحدث صدى فى كل أرجاء العالم الاسلامى ، فهذه المنطقة بالنسبة للمسلمين بمثابة القلب ، تتوقف على نوعية ضرباته حياة باقى الجسـد ، لذلك يتأثر المسلمون فى جميـع أنحاء الكرة الأرضية بالأحداث الجارية على أرض هـذه البقعة من وطنهم الاسـلامى ان مداً أو جزراً •

ان حركة القومية العربية التى ظهرت على أرض هذه المنطقة هيأت

لكل الحركات ذات الاتجاهات المختلفة ، أسلوبا للعمل جمعهم على طريق كفاحهم ، ووسع جبهة الالتقاء حتى وجدت كل حركة لها مكانا فى هـذا الاتجاه السياسى ، الذى يطلق عليـه اسم القومية العربية ... ذلك الاتجاه الذى جذب كل القوى الى قاعدة صلبة متينة تقوم على أسس ثابتة مشتركة — وهى الاشتراك فى اللغـة والثقافة ، والدين — ربطت كل الاتجاهات الوطنية فى جبهة واحدة ، ضد القوى الغربية ، ونفوذها . وبهذا مثلت القومية العربية دور القومية الاسلامية ، فهى عربية فى ظاهرها ، اسلامية فى مخبرها وأهدافها ، ويتجلى ذلك واضحا فى معارضتها الشديدة لأوروبا وللمسيحية . دعم زعماء الفكر هـذا الاتجاه فدعوا اليه ، وساندوه وأقاموا التنظيمات التى تمده بالحياة ، أقاموا فى القاهرة ، وكونوا جبهة الشباب المسلم ، هادفين من وراء تكوينها جمع الاتجاهات القومية التى ظهرت فى كل أرجاء العالم الاسلامى فى وحدة اسلامية ، بحيث يطغى صوت الشعور الاسلامى على أصداء القوميات المختلفة . وتعبأ كل الطاقات المبعثرة فى الحركات الاقليمية لخدمة الهدف العام المشترك وهـو :

١ — العودة الى القرآن كمصدر أساسى لتنظيم حياة الفرد والأمة .

٢ — اتخاذ الاجراءات اللازمة ضـد المبشرين المسيحيين ، لأنهم كانوا طلائع الاستعمار الغربى ، الذين مهدوا له الطريق للسيطرة على البلاد وامتلاك ثرواتها ، ومن هـذه الاجراءات مقاطعة مدارس التبشير .

٣ — الوقوف بجانب المسلمين فى كل مكان ، ومناصرة قضاياهم .

هذه هى أسس البرنامج العملى الذى التقى عليـه زعماء الفكر فى القاهرة ، ومنه يتضح أن قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن ، ولم تنجح الأحداث التى مرت على المسلمين فى القرون الأخيرة فى زعزعة ثقتهم به كقوة روحية ، تستطيع أن تجمع التيارات المختلفة تحت راية واحدة ، فانظر كيف تقاربت القوميات المختلفة التى نادى بها رجال يعدون من الصفوف الأولى ، التى صارعت الاستعمار الغربى على الصعيد السياسى ، وكيف جذبت الأحداث الاسلامية الزعماء الى التكاتف

والتساند ضد الغرب • ان الروح الاسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة وعواطفهم ، وستظل كذلك مادامت هناك شعوب اسلامية ربطت مصيرها بتعاليم الاسلام ، واعتقدت أن الرباط الجامع بين أجناسها المختلفة هو الاسلام •

ان روح التعاطف والتواد بين المسلمين هو السبب فى تجميع القوى الوطنية على طريق القومية الاسلامية ، وقد ظهر ذلك واضحا وملموسا فى فترة النضال ضد الاستعمار الغربى ، وما زالت هذه الظاهرة موجودة — وتنمو باطراد — فى المناطق التى لازال فيها الصراع قائما مع القوى الغربية ، حيث يتخذ النزاع شكل المقاومة المسلحة ••• فى البلاد التى لم تجد فيها حرية الشرق موضعا لأقدامها ، فى البلاد التى لم تحصل بعد على الاستقلال الذاتى ، اذ أن كفاحها ضد القوى الاستعمارية الغربية مازال فى بداية الطريق ، وطموحها السياسى لم يتعد المرحلة الأولى • ان أوضح مثال لمزج التيار الدينى بالحركات الوطنية تجده فى فلسطين ، حيث يرى المراقبون ذلك مجسما أمامهم ، وليس أقل منه وضوحا ذلك الذى يحدث فى شمال افريقيا غرب الحدود المصرية ، حيث لا زالت القوى الاستعمارية تحتفظ بسلطانها وجبروتها لم تتزعزع بعد ، ولم تهن عزيمة المستعمرين ، فهنا أخذت كل الجهود السياسية الموجهة ضد الغرب طابعا دينيا ، ولبست كل انتفاضة قومية أو غضبة اقليمية ضد المستعمر ثوبها الاسلامى ، فدفع الجماهير الى الثورة ضد المستعمر يكون دائما باسم الدين ، لأن العربى فى الجزائر — على سبيل المثال — الذى لا يملك شيئا يقتات به حتى الخبز الجاف — فطعامه كل يوم حفنة من الزيتون — ليس لديه امكانية أخرى للتعبير عما يريده وما يرفضه فى المجال السياسى سوى السير وراء ما يعتقد أنه طبقاً لعقيدته الاسلامية ، ومن هنا كان استجابته لتوجيه العلماء الذين يأتون اليه من خريجى المدارس الاسلامية العليا فى القاهرة ودمشق وفزان • يلعب هؤلاء العلماء دوراً كبيراً فى اشعال الروح الدينية لدى الشعب ، وفى دفعهم من الناحية الدينية الى الثورة ضد المستعمرين •

يجد المكافح السياسى ، وزعيم العرب فى الجزائر ابن جلول — فهو عربى لحماً ودماً يشتغل بمهنة المحاماة — الأرض الخصبة لأفكاره السياسية فى المساجد ، حيث تلقى الخطب اليوم علنا ضد الأجنبى — أى ضد الفرنسيين فى تلك البلاد — وتعبأ مشاعر الشعب لكره الأوروبيين • ويجلس المحركون لتلك القلاقل والموجهون للثورات الشعبية — التى تندفع اليوم فى مستعمرات شمال افريقيا حيث يظن الأوروبيون أنها محمية من الهزات ، ومؤمنة ضد الانتفاضات الوطنية — فى القاهرة أو فى دمشق ، ويعتقدون عدم الفصل بين الدين والدولة ، فليس هناك حاجز بين الدين والوطنية ، اذ القومية قوة جديدة لها قيمة فى المجال السياسى ، وتلقى التشجيع من كل الفئات ، لأن المسلمين يأملون فى أن ينجح القوميون فى نزع الاعتراف بالمطالب الاسلامية من المستعمر ، وربما فى تطبيق القانون الاسلامى •

كذلك فى ايران — البلد الذى ينهج فى سياسته اليوم نهج تركيا فى محاولة التحرر من الدين — قام تحالف بين الاسلام ، والقوى القومية الثائرة ، التى تجمعت فى الفرق القوقازية تحت قيادة رضا خان الذى سمى فيما بعد رضا شاه ، وقام هذا التحالف — وكانت له آثار بالغة — فى أعقاب الحرب العالمية ، حيث وقع صدام مع الاستعمار الغربى • وعدل التقارير البريطانية التى تناولت أحداث الصراع ، على أن العلماء الشيعيين لم يكونوا أقل خطراً على السلطة الانجليزية من أولئكم الجنود الذين دفعتهم روح القومية لحمل السلاح والقتال ضد القوات البريطانية ، لأنه كان من الممكن أن تسيطر القوات الانجليزية على هذه القوة الثائرة وتصبح بريطانيا سيدة الموقف بتفوقها على عتادهم الحربى ، لو لم يكن هناك هؤلاء الدعاة الذين يحمسون الشعب باسم الدين ضد القوات البريطانية •

ذهب رضا خان بنفسه الى رجال الدين الشيعيين وأقام معهم تحالفا قبيل وقوع معركته الحاسمة التى قادها بنفسه فى جنوب ايران ، ورمى من وراء هذا التحالف التمكن من ضرب القوات المنشقة ، وضمان سيطرة

القوى القومية على البلاد ، ونحا فى ذلك نحو ما حدث قبل الحرب العالمية ، فقد تعاقد القوميون الايرانيون آنذاك مع الملا على أن يساند رجال الدين الشيعيون الحركة القومية ، كى يحصل زعماؤها على مركز يمكنهم من التحدث باسم الشعب للحصول على الحقوق الوطنية ، ويضفى عليهم شرعية الوقوف فى وجه الشاه القاجارى • أراد رضا خان أن يلعب هذا الدور ، وسلك فى سبيل الوصول اليه شتى الطرق ، ففى نهاية عام ١٩٢٤ م قام الشاه بتلك الرحلة التى كان لها صدى بين عامة الشعب ، مما جعلها تحتل مكاناً مرموقاً بين أحداث الدولة التى لا تنسى ، ألا وهى رحلة الحج الى الأماكن المقدسة التى يحج اليهـا الشيعيون فى كربلاء والنجف ، وفى أثناء تلك الرحلة ساد التفاهم بين رجال الدين وبين رضا خان حاكم ايران المرتقب ، واستطاع على أثرها أن يقضى نهائياً على آخر صوت للمعارضة التى كانت توجه اليه من جانب الهيئات ذات المصالح الخاصة ، ومن جانب الاقطاعيين ؛ وبذلك خلا الطريق أمامه للوصول الى عرش ايران •

وفى أفغانستان عندما اعتقد أمان الله أنه يستطيع أن يهمل التقليد الذى حدث فى أقطار اسلامية عديدة ، ويبنى الدولة الحديثة دون النظر الى القوى التى ترتكز على الاسلام كتراث للوطن ••• عندما اعتقد ذلك تبين له الخطأ الشنيع لهذه السياسة ودفع الثمن غاليا ، فقد أطيح به واضطر الى الهرب خارج البلاد ، وأصبحت الحركة الوطنية فى أفغانستان — التى تتولى اليوم بناء الدولة الجديدة — وعاء يحوى كلتا القوتين اللتين تميزان القومية الاسلامية ، وتبرزان طابعها فى هذه الحقبة التاريخية ، فقد اتحد علماء الدين مع الجيش ووقفوا خلفه يساندونه باعتباره حامل فكرة القومية ، ومضى الجيش فى بناء الدولة مطمئنا ، لأنه يعتمد على ركيزة متينة تمتد عمدها الى كل فرد فى الأمة ، وبذلك ضاع حلم أمان الله وطواه النسيان ، ذلك الحلم الذى أوحى لأمان الله أنه يستطيع انشاء دولة قومية متحررة من الدين •

حتى القضاء على الخلافة فى تركيا لم يكن فى مبدأ أمره عملا

موجها ضد الاسلام ، فلم يقصد الوطنيون فى تركيا الذين أسسوا الجمهورية ـ بالغاء الخلافة الذى أعلنه كمال أتاتورك ـ العداء للاسلام ، ولم يخطر ببال أحد من الأوساط الوطنية أن ذلك معناه الالحاد أو محو الاسلام من تركيا ، بل هو أمر أملته الظروف وحاكه الدهاء السياسى .

فبعد ما حصل الجيش التركى بقيادة كمال أتاتوك ـ القائد المنتصر ـ على النصر الحاسم فى ميدان القتال ، وأمن بذلك استمرار قيام تركيا كدولة ، اعتقد القوميون الأتراك أن الأسرة العثمانية المالكة التى مازالت تحكم البلاد لم يعد لها الحق فى البقاء على رأس الدولة الجديدة ، ولهذا حصلوا على قرار من البرلمان التركى بفصل الخلافة عن السلطنة ، والغاء السلطنة بناء على فتوى صدرت من أعلى سلطة دينية فى البلاد ، وبهذا « التكتيك » تفادى الوطنيون صراعا مع القوى الدينية ـ فالقرار موافق لفتوى أفتى بها شيخ الاسلام ـ وكذلك مع محمد السادس انتزعت منه السلطنة لأنه رضى بوضعه الجديد الذى يحفظ له الهيبة والشرف كخليفة ، ولم تحدث الخطوة الحاسمة الا عند ما عارض اتجاه القوميين وهرب ـ محمد السادس ـ الى معسكر الانجليز ، وأصبح بهذا العمل عدواً للوطنيين لانتمائه الى أعداء البلاد ، وخارجا عن الحدود الاسلامية ، لأنه مال الى صف غير المؤمنين « الكفار » وسرعان ما استصدر الزعماء فتوى أخرى بخلعه من الخلافة ، وولوا مكانه عبد المجيد ، وأنذروه ألا يتدخل فى شئون البلاد . فليس له الحق فى ابداء الرأى فى المسائل التى تتعلق بالشئون الداخلية للدولة ، فسلطة الخلافة تتعدى حدود تركيا الجديدة ، ولكن المؤتمر القومى التركى يرى من الضرورى جداً ، ومن المسائل التى لا تحتمل التأجيل : الوصول الى قرار حاسم للمشكلة المتعلقة بالدول التى تخلف تركيا فى المنطقة العربية ، وذلك محافظة على كيان الدولة التركية الجديدة ، وتأمينا لوجودها ، وكان اتجاه المؤتمر هذا نابعا من حرصه على عدم اثقال كاهل الدولة الفتية بالتورط فى مسائل عالمية .

ترتب على فصل السلطنة عن الخلافة ، فصل بين الدين والدولة ،

ويبدو أن الظروف حتمت هذا الاجراء ، فاتجهت اليه نية القائمين على السلطنة لأنهم رأوا أن ربط سلطة الخليفة — التى هى فوق الدولة — بشخص يملك فى يده زمام الحكم يمكن أن ينشأ عنه نزاع ومصادمات لا يعلم أحد مدى أثرها على الدولة ، كذلك كان الفصل محواً تاماً لسياسة عبد الحميد الرامية الى الوحدة الاسلامية التى لم تجد لها صدى حقيقيا ، لأنها كانت أقرب الى الأهداف السياسية وأطماع السلطة منها الى الاسلام ، ورغم هذا التغيير الذى أحدث فصل الخلافة عن السلطنة ، فقد كرر كمال أتاتورك القول بأن تلك الخطوة لا يقصد بها العمل ضد التعاليم الاسلامية ، وأكد مرارا حسن نية القائمين على الحكم بالنسبة للأمور الدينية ، بدليل : أن قرار الفصل بينهما لم يتخذ الا بعد موافقة رجال الدين ، وأنه قد صدرت منهم فتوى دينية بذلك قبل أن يوافق المؤتمر القومى • كان القضاء على الخلافة فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ أمراً اقتضته الظروف ، كذلك فقد ثبت أن الأوساط السياسية الرجعية يرون فى شخص الخليفة أملا يراودهم فى عودة قيام المملكة العثمانية ، وربطوا امكانية رجوع سلطانهم بوجود الخليفة ، لذلك اشتمل قرار نفى الخليفة على طرد كل الرجال من أسرة العثمانيين ، مما يدل على أن هذا التحرك السياسى الذى اتخذته الحكومة رد على مؤامرة مع آل عثمان • وقع خلاف بين قادة الدولة ، ورجال الدين ، تطور بمرور الأعوام الى دعوة متطرفة ، للتحرر من الدين ، وصاحب تنفيذها عنف وقسوة ، ولم ينشب هذا الخلاف نتيجة القضاء على الخلافة، بل له أسباب أخرى :

١ — تعاقد فريق من العلماء — منذ قيام الجمهورية — سرا مع الأسرة المالكة على مناوأة الجمهورية كوضع سياسى للدولة ، واستمر موقفهم هذا أعواما مما جعل بوادر المصادمة بينهم وبين القوميين تقترب يوما بعد يوم •

٢ — فى ١٥ يونيو سنة ١٩٢٦ م اكتشفت مؤامرة لاغتيال « كمال أتاتورك » واتهم فيها سياسيون من الأوساط الرجعية ، وعدد من رجال الدين غرر بهم •

وبعد اكتشاف هذه المؤامرة انفجر الصراع بين « كمال أتاتورك » ، وبين رجال الدين أى الداعين الى الاسلام ، ولم يذهب أثر هذا الصراع حتى اليوم •

وهكذا تطورت الأحداث فى تركيا متجهة وجهة غير اسلامية ، ودفعها الى ذلك عدد من المحاولات التى جانبها الحظ ، فتعثر قيام علاقة ودية بين القوى القومية ، والاتجاهات الدينية ، وفسد المناخ الذى يساعد على تبادل الآراء بينهما ، وأصبح التحالف مستحيلا فى وقت لعب فيه مثل هذا التحالف دورا حاسما فى العالم الاسلامى ، وبذلك انعزلت القومية التركية — أيضا لأن دعوتها الى التحرر من الدين كانت عنيفة — عن باقى الحركات الوطنية التى قامت فى العالم الاسلامى ، وأصبحت فريدة فى منهجها وسياستها ، فخرجت عن أن تكون مثالا لتلك القوى التى يتكون منها البناء الجديد للشرق الاسلامى • رغم هذا المنهج الذى سلكته الحكومة التركية ، فلا زال حتى اليوم فى تركيا مراكز قوى ذات ثقل لدى الشعب ، تهتم بالدعوة الى عودة الدين الى الحياة السياسية ، مما يدل على أن القومية لم يخل لها الجو بعد ، وما فتىء التطور التاريخى سائراً فى طريقه لم ينته من هذه الحقبة التاريخية، فالمعارضة الداخلية — ضد النظام الداعى الى التحرر من الدين — لم تزل أقوى مما قدر لها المراقبون ، وتتمتع الآن بقوة لم يتوقعها أحد •

اذا صرفنا النظر عن المثال التركى المنفرد ، فلا تمثل القومية الاسلامية بأى حال من الأحوال مشكلة قومية بالمفهوم الأوروبى ، اذ هى قوة ذات أثر فعال فى بناء وحدة المصير الاسلامى الذى يشعر الشعوب الاسلامية بأنهم جبهة واحدة على الصعيد السياسى ضد الاستعمار الغربى ، وفى مجال الدين ضد المسيحية [1] • وانعقد تحت لوائها — أى

---

(١) هذا فهم خاطىء من المؤلف فان الاسلام ليس معاديا للمسيحية ، بل ان المسلم لا يكون مسلما الا اذا اعترف برسالة المسيح عليه السلام ، وبأن أمه مريم قد اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين حسب نص القرآن الكريم . ولكن القومية الاساسية تعادى الاستعمار سواء اكان غربيا مسيحيا أم شرقيا الحاديا • (م . ش) .

القومية الاسلامية — تحالف القوتين : الدينية والقومية ، وبدأ بهذا التحالف حقبة جديدة فى تاريخ الصراع بين الشرق والغرب حقبة يتخذ فيها الشرق مرة أخرى موقف المهاجم •

* * *

اتحدت القوى القومية مع الاتجاهات الدينية فى العالم الاسلامى ، وكان تأثير الروح الدينية عليها متفاوتا بين قطر وآخر ، قلة وكثرة ، غير أن الأقطار كلها يجمعها طابع واحد ، ألا وهو تجميع الاتجاهات الوطنية فى اطار القومية الاسلامية ، وهذا يتطلب مزيدا من التكاليف واستمرار العمل المشترك فى كل مجالات الحياة ، فهو التقاء يبعث الروح الجماعية بين الشعوب الاسلامية — من مراكش حتى حدود الهند والصين — ويحيى فيها الشعور بوحدة المصير الذى يحتم على المسلمين التجمع حول رباط شرقى اسلامى •

ويتلقى الشعور بوحدة المصير — الذى بعثته القومية الاسلامية فانتشر بين المسلمين انتشارا واسعا وسريعا — طاقته السحرية ، وقوته الجبارة من مكة ، من تلك المدينة التى أطلق عليها ذات يوم « قلب الاسلام » ، بينما عرفت القاهرة بأنها : رأسه ، والقسطنطينية بأنها : يـده •

هنا فى مكة يجتمع المسلمون — من كل أرجاء العالم — مرة فى السنة أثناء الحج الأكبر ، يلتقون مع بعضهم ، بعد أن يطرحوا عنهم كل أثر أجنبى خارج المنطقة الحرام المضروبة حول مكة ، ينسون قومياتهم وأوطانهم ، ويتذكرون فقط حقيقة واحدة • أخوة فى الله ، تجمعهم عقيدة واحدة ، وكتاب واحد ، ليس للفوارق الاقليمية مكان بينهم ، وهم يد على من سواهم •

فمكة هى المحل الذى يشعل العاطفة الدينية فى المسلمين ، ويبعث فيهم روح تعاليم كتابهم المقدس (القرآن) ، وهى مركز الاشعاع الروحى والفكرى ، حوله تحوم أفكارهم ، ثم تنبعث قوة محركة لكل

الطاقات فى أرجاء العالم الاسلامى ، — وليس من السهل على غير المسلم أن يفهم هذه الخاصية الفريدة من نوعها فى العالم ، رغم أنها موجودة ومشاهَدة فى كل جوانب الحياة — فتبعث الوعى والادراك بوحدة المصير فى هذا العالم الذى يعيش فيه أكثر من ٢٥٠ مليون نسمة (١) .

ان أقل ما يجب على المسلم ازاء هذا المكان المقدس أن يقوم بزيارته مرة فى العمر ، ليؤدى فريضة الحج ، وتكليف المسلم بهذا الفرض ليس له طابع الاجبار ، فكل مسلم يتمنى أن تتيح له الظروف تحقيق هذا الأمل ، بل يستولى الحنين الملىء بالمشاعر الفياضة ، على أعداد لا حصر لها من المسلمين لتأدية هذه الفريضة ، ولا يهدأ له بال ، ولا يرتاح ضميره الا اذا قام بزيارة هذا البلد الحرام — مكة — هذا الحنين الى مكة والتدافع اليها — الذى ينساق اليه الانسان تحت تأثير نداء داخلى ويضحى فى سبيل الوصول الى اجابة هذا النداء بتضحيات جمة ، مالية وغير مالية وهذه الظاهرة موجودة لدى جميع مستويات الشعب — دليل على حيوية الاسلام وقدرته على تحريك أتباعه ... دليل على وحدة الروح التى تسرى فى العالم الاسلامى — الذى يعيش فيه مختلف الأجناس دون أن يكون هناك صراع بسبب اللون أو النسب — فتمسك وحدته برباط متين وتمده بالحياة ليصارع آفات الفناء التى تحوم حوله .

فى السنوات الأخيرة اندفعت موجة التجديد فى العالم الاسلامى ، وقابلها نمو أعداد الحجاج باستمرار ، اذ تدل الاحصائيات على أن عدد المسافرين الى مكة يزداد باضطراد ، وتأخذ هذه الأعداد الكبيرة طريقها الى مكة — فى شهر رمضان — لتقضى الأيام الدينية المباركة هناك حول الكعبة ... تلك الأيام — التى يجتمع فيها أناس من مختلف القارات فتسمو فيها روحهم وتصفو قلوبهم ويشعرون بالمشاركة الوجدانية — تزداد أهميتها عاما بعد عام فى احياء روح الاخوة بين المسلمين ، وتقديم

---

(١) بلغ عددهم الآن اكثر من ٤٠٠ مليون مسلم . (م . ش) .

فرص اللقاء لهم ليتشاوروا فيما بينهم حول ما يجب اتباعه فى أقطارهم حتى يلتقون على طريق واحد • وكان لقاء عام ١٩٣٧ ذا أهمية بالغة ، اذ اشتركت فيه دولة اسلامية تتمتع بمركز اقتصادى هام ، بعد أن انقطعت عنه سنين طويلة ، نتيجة النزاع مع ابن سعود ، تلك هى مصر التى أرسلت فى رمضان بحجاجها ، وبعثت العطاء والصدقات ، وعندما احتفل فى مكة بعودة العلاقات بين الدولة السعودية ومملكة النيل ذات الثراء الوفير ، ظهرت مصر بمظهر السخى بما دفعته من حصتها المفروضة عليها ، وأبدت روح التعاون والتآخى فاق ما يكتب على الورق من بنود الاتفاقات الدولية •

تحت سماء مكة — المدينة المحرم على غير المسلم دخولها — وحول الكعبة التى يقصدها المسلمون كل عام ، يتآمر ذلك العالم المنطوى على نفسه فى هذا المكان ، المتلهف على الوقت الذى يستعيد فيه عصره ••• يتآمر ضد أولئك الذين لا يجوز لهم دخول هذه المنطقة • ويمكن للمرء أن يتخيل أن فى هذه المدينة المغلقة أمراً يدبر وحيلا سياسية تحاك ، وقرارات ذات أهمية للعالم البعيد تتخذ ، وأن المجتمعين خلف الكواليس لا يتناولون فقط بحث المسائل الدينية فى العالم الاسلامى ، بل يناقشون مشاكلهم السياسية •

اذا لم تكن هذه هى الحقيقة فلم تنبعث من أرجاء مكة تيارات سياسية لها أثرها العميق فى العالم الاسلامى ، فلا أقل من أن تلعب هذه المدينة دورا غير مباشر فى توجيه الجو السياسى ، اذ الشعائر الدينية التى تقام فيها تطبع المسلمين بطابع خاص يدور فى جوهره حول التشدد فى عداء البلاد الغربية ، والوقوف فى وجه الاستعمار الأوروبى ، ولكن سيد الجزيرة الحالى — ابن سعود — ملك الحجاز الذى تدين له المدينة بأمنها ورجوع هيبتها ومكانتها اليها — أذكى وأكثر دهاء فى الدبلوماسية من أن يسمح بأن تتخذ المدينة مكانا لتدبير المؤامرات السياسية ، أو أن تحاك مؤتمرات عدائية داخل منطقة النفوذ الدينية ، لأن مثل هـذه

الأعمال يمكن فقط أن تضعف الوحدة الاسلامية ، أو تعكر صفو الجو الذى ينبغى أن تخلق فيه •

فمنذ انعقاد المؤتمر الاسلامى فى عام ١٩٢٦ الذى دعا اليه ابن سعود لمناقشة مسألة الخلافة ، فكر « ابن سعود » — فشل المؤتمر وخيب آماله — جديا أن يبعد الاجتماعات السياسية عن الأماكن الدينية — أى عن مكة — ، لأنها غالبا ما تطرق المسالك الوعرة ، وتضفى على الناحية الدينية ضبابا ، يحجب صفاء العلاقة الأخوية ، بين الحكومات الاسلامية ، وبهذا بعدت مكة ، وتغير طابعها كمنبع تخرج منه أيضاً التيارات السياسية •

لم يمنع هذا الاجراء — الذى اتخذه ابن سعود بابعاد المؤتمرات السياسية عن مكة — حدوث اللقاءات السياسية بين قادة الشعوب الاسلامية فى حرم هذه المدينة ••بل زاد الشعور بضرورة اللقاءات الفردية بين زعماء المسلمين ، وشهدت دروب مكة ووديانها — مرارا وتكرارا — معالم التفاهم والتقارب بين أتباع الاسلام من جميع أنحاء العالم • ومن هذه اللقاءات وذلك التقارب نما على أرض مكة — أثناء موسم الحج — شعور بضرورة اقامة ترابط اسلامى بينهم ، يثبت وجوده بالعمل الجماعى على مسرح السياسة ، والتآزر ، والتكاتف فى المسائل الدولية ، حتى يستطيع العالم الاسلامى أن ينتزع لنفسه مركز القوة العالمية •

وعن طريق نمو هذا الشعور وزيادة وضوح الغد المرتقب أمام عين المسلم ، وانتقال هذا الأمل من اللاوعى الى الوعى ، خلقت الافتراضات الفكرية المسبقة ، وتبلورت فى الذهن الأفكار اللازمة لدفع الأمة الى بناء قوة عالمية ••• أفكار كان لها أثر كبير فى خلق التعاون بين الأقطار الاسلامية ، فى مجالات السياسة والاقتصاد ، فالدول الاسلامية — رغم أن بعضها لم يتمتع بعد بحرية كاملة — نظمت أمورها على أساس رسم خطط جماعية ، وتعضيد سياسى فيما بينها ، ويسير ذلك بعيدا عن مكة ؛ أى بعيدا عن المحيط الدينى الذى يبدو للعالم مترمتا ، ولكن فى مكة تحفر الشعائر الدينية — التى يؤدونها جماعة فى ساحة الحرم — فى ذهن

المسلمين — ومنهم القادة — أخاديد يخضعون لها فى أعمالهم ، وتوجههم الى الطريق الاسلامى المشترك فى أوطانهم ؛ وبذلك تهيأ العقول للعمل الجماعى فى الأمور السياسية ، والاقتصادية ، وتوجه الى ميدان المصالح المشتركة ، وهنا يلتقى الدين بالدنيا ، وتصبغ التعاليم الاسلامية كل عمل فى الدولة — فتحول دون وقوع الثنائية فى التفكير التى ظهرت فى أوروبا حيث أقصيت المسيحية اقصاء تاما عن مجال التوجيه فى الدوائر الحكومية — عن الدولة •

ومن الطبيعى كذلك أن مكة مكان تلتقى فيه الشخصيات البارزة فى العالم الاسلامى ، ويحدث فيه التعارف بين القادة من كل الأقطار الاسلامية ، فيتناولون فى أحاديثهم شئونا سياسية ، ومسائل اقتصادية فتتضح لهم معالم الطريق ، وترسم أمامهم الخطط ، التى تأخذ طريقها الى التنفيذ فى المقابلات السياسية التى تعقد فى مكان آخر غير مكة ، وهكذا تحمل لقاءات مكة — التى هى فى أصلها اجتماع دينى — ثماراً تمد العاملين فى مناطق الحكم والتوجيه ، بغذاء دينى يطبعهم بالطابع الاسلامى • لقد فقد وطن الاسلام الأول مركزه كنقطة تجمع سياسى ، ومكان لعقد المؤتمرات التى تعنى بشئون الحكم • ولكنه — رغم هذا — لم يزل مكانا تتفاعل فيه الأفكار فتنتج الوعى والادراك بتبعيتهم جميعا للاسلام ، فينصرفون الى أوطانهم عاقدين العزم على مساندة بعضهم فى جميع شئون الحياة ، ويرجع الفضل فى أن مكة تلعب هذا الدور اليوم ، الى ذلك الرجل الذى يشار اليه — أكثر من مرة — الى أنه أعظم رجل مسلم فى العصر الحاضر ، وهو « ابن سعود » وسيسجل التاريخ : أن من حسنات ذلك الرجل أنه أعاد الأمن للحرم ، وما حوله ، وشدد الحراسة على الأماكن المقدسة ، والطرق المؤدية اليها ، فخلق لكل المسلمين الجو للقاء آمن • الى أقصى ما يتصوره الانسان ، من متطلبات الأمن على النفس والمال •

* * *

أنصهرت فى مكة خطط ومشروعات ، ونبعت من الشعائر الدينية

التى تقام فى حرمها موجات سرت فى كل أرجاء العالم الاسلامى ، فهناك — فى مكة — دارت مناقشات حول اعادة الخلافة ، التى ألغاها البرلمان التركى فى عام ١٩٢٢ • ولكى نتعرف على أهمية مثل هذه الخطط التى خرجت من مكة ، وعلى مدى تأثيرها فى العالم الاسلامى ، يجب أن نلقى الضوء على وضع الخلافة فى العالم الاسلامى ، ونبين مدى القوة التى تتمتع بها فى نفوس المسلمين ، فكلمة خليفة ، معناها وكيل ، أو ممثل ، أو نائب ، فكان النبى [ﷺ] يولى من يخلفه على المدينة اذا خرج فى غزواته ، وكان هذا الوالى يقوم بمهام النبى [ﷺ] فى غيابه ، من امامة للصلاة ، ورعاية المسلمين فى مدينة النبى [ﷺ] ، وشبيه بهذا الظرف تعيين خليفة للنبى [ﷺ] بعد موته ليرعى أمور المسلمين : تأمينا لاستمرار نشر الدين ، وحفظ كيان الدولة السياسى ، وكان يشترط فى خليفة النبى [ﷺ] أن يكون متمتعا بصفات تمكنه من القيام بما كان يقوم به النبى [ﷺ] من تنظيم شئون الدولة ، ورعاية المسلمين • وبمعنى أوضح : تكون طبيعته أقرب الى طبيعة النبوة ، غير أنه لم يؤثر عن أحد من خلفاء النبى [ﷺ] أنه ادعى هذا الحق اطلاقا ، ولم يدعوا أنهم يملكون عبقرية النبوة ، وبالتالى لم يضع أحد من الخلفاء المتأخرين نفسه هذا الموضع ، بل لم يحاولوا من قريب أو بعيد أن يحملوا الناس على الاعتقاد بقدسيتهم ، أو بأن فيهم صفات نبوة ، فبعد انتقال النبى [ﷺ] الى الرفيق الأعلى قام الخليفة الأول : بعمل الأمور الواجبة التى كان يقوم بها من يوليه [محمد ﷺ] امارة المدينة ، عندما كان يخرج الى الغزوات — وساس — هو ومن بعده — المجتمع الاسلامى اداريا • ولكنهم — كلهم — لم يستطيعوا — ولم يكن لهم الحق — اطلاقا أن يسنوا قوانين جديدة ، أو يبشروا برسالة خاصة بهم ، أو يدعوا أنهم يؤتون الوحى من السماء •

وهكذا انحصر عمل الخلفاء فى ادارة المجتمع الدينى ، وبناء عليه نستطيع أن نطلق عليهم كلمة « مديرو المجتمع الاسلامى » • اتسع هذا المجتمع ، وانتشر الاسلام شرقاً وغرباً ، فأصبح لزاما على الخلفاء أن

بباشروا سلطانهم على هذه الدولة المترامية الأطراف كحكام ، لأنهم اعتقدوا [١] أن محمداً [ﷺ] لم يؤسس ديناً فقط ، بل أسس دولة شملت كل ما يعرف للدولة من نظم :

١ ــ أقام جيشاً قوياً ، ودربه وسلحه وأعده اعداداً كاملا ، ليدافع عن الدين الجديد ، وليفتح به الأقطار ليتمكن من نشر دعوته فيها [٢] .

٢ــ كان محمد [ﷺ] حاكم هذ الدولة ، والمشرع لها [٣] .

٣ ــ رسم لأتباعها طريقهم فى الحياة الدنيوية الذى يوصلهم الى نجاح فى الحال ، وفلاح فى المــآل ، فهو يتمتع بالســلطة الروحية ، والدنيوية .

غير أن الخلفاء لم يكن لهم سوى السلطة الدنيوية ، فهم ينفذون ماشرعه النبى [ﷺ] ويضبطون أمور الدولة طبقاً للشريعة الاسلامية ، لم يمارسوا فيها سلطة فردية (أوتوقراطية) ، ولم يتمتعوا بمكانة روحية عند المسلمين كتلك التى يتمتع بها بابا الكنيسة الرومانية عند المسيحيين ، اذ يحتل البابا المركز الروحى الأول فى الكنيسة ، فقد طبقت الشريعة على الخليفة ــ حتى فى العصر الذهبى للخلافة ــ والمسلم الذى لا يحتل أى مركز اجتماعى سواء بسواء ، لا فرق بين عظيم وحقير ، ولابين غنى وفقير ، كذلك لم يكن للخليفة وحده حق التفسير والتأويل ، فالواقع أن معظم الخلفاء ــ ان لم يكن كلهم ــ التزموا بالأحكام المستنبطة

---

(١) لم يعتقدوا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم أسس دينا بل عقيدتهم ان محمدا رسول الله أوحى اليه ربه برسالة من السماء وأمره بتبليغها « **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك** » (المائدة : ٦٧) (م.ش) .

(٢) لم ينتشر الاسلام بالسلاح ، وفتح الأقطار كما يدعى المؤلف . وانما انتشر بالدعوة الصادقة والحجة البالغة دون اكراه أو اجبار « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** » (النحل : ١٢٥) .

« **ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن** » (العنكبوت : ٤٦) « **لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى** » (البقرة : ٢٥٦) . (م.ش).

(٣) المشرع هو الله . والنبى مبلغ لهذا التشريع « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك** » (الشورى : ١٣) . (م . ش).

من المصادر الدينية (القرآن والحديث) دون أن يكون لهم أدنى جهد فى استنباطها ، وبمعنى أوضح • خضع الخلفاء لأولئك الذين قضوا حياتهم كلها فى دراسة فروع الدين المختلفة (شرحاً وتأويلا ، واستنباطا) وهم علماء الدين ، وعلى رأسهم المفتى الأكبر [١] ، أو شيخ الاسلام الذى كان الساعد الأيمن للخليفة ، يستفتيه فى مسائل الدولة قبل أن يصدر أمره بالتنفيذ ، اذ كانت الدولة كلها تخضع لفتوى شيخ الاسلام ، حتى الخليفة — وهذا يدل على أن العلماء هم الذين كانوا يتمتعون « بالدكتاتورية الدينية » (الأوتوقراطية) لا الخلفاء — فكان لزاماً عليه أن ينفذ ما يستنتجه الفكر من قوانين الشريعة كلما كانت لديه السلطة لهذا التنفيذ •

اذن فعمل الخليفة دنيوى دائماً ، واذا تناول مسألة روحية ، فلا يكون الا من زاوية تنفيذها كمسئول ادارى عن المجتمع الاسلامى ، ولم يحتل — كما ذكر سابقاً — السلطة الروحية كبابا الكنيسة الرومانية — الذى كان له صلاحية السيطرة على العديد من الكنائس روحياً ، وفرض آرائه فى المسائل العقدية التى تتعدى سلطته كانسان ، فكثيرا ما ضرب البابا بآراء العديد من الكاتدرائيات عرض الحائط ، وألزمها « بما يوحى اليه » — ، فلم يحدث فى تاريخ الاسلام أن ارتبط مقام الخلافة بالسلطة المطلقة ، أو بسلطة احداث تشريع جديد ، كما ارتبط ذلك بالبابوية الرومانية •

ويحسن فى هذا المقام أن نورد ما قاله « الماوردى » أحد علماء المسلمين فى القرن الحادى عشر الميلادى — أى فى عصر ازدهار الخلافة — عن واجبات الخليفة ، قال فى كتابه « الأحكام السلطانية » :

---

(١) لم يكن فى زمن الخلفاء أحد يسمى بالمفتى الأكبر أو شيخ الاسلام ، ولم يكن لأحد الحق فى أن يكون رأيه ملزما فى فهم الدين واستنباط أحكامه وانما يحدث الالزام حين يوجد الاجماع على فهم معين والا فهى اجتهادات فردية غير ملزمة وتصيب وتخطىء ، فليست هناك ديكتاتورية دينية لأحد كما يدعى المؤلف (م • ش) .

يجب على الخليفة :

١ — حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأمة ، فان نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة ؛ أوضح له الحجة ، وبين له الصواب ، وأخذه بما يلزمه ، من الحقوق والحدود ، ليكون الدين محروساً من خلل ، والأمة ممنوعة من زلل .

٢ — تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعمم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم .

٣ — حماية البيضة والذب عن الحريم ليتصرف الناس فى المعايش، وينتشروا فى الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال .

٤ — اقامة الحدود لتصان محارم الله — تعالى — عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من اتلاف و ستهلاك .

٥ — تحصين الثغور بالعدة المانعة ، والقوة الدافعة ، حتى لا تظهر الأداء بقوة ينتهكون فيها محرماً ، أو يسفكون فيها لمسلم ، أو معاهد دماً .

٦ — جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم ، أو يدخل فى الذمة ليقام بحق الله — تعالى — فى اظهاره على الدين كله .

٧ — جباية الفيء ، والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً، من غير خوف ، ولا عسف .

٨ — تقدير العطايا ، وما يستحق فى بيت المال ، من غير سرف ، ولا تقتير ، ودفعه فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

٩ — استكفاء الأمناء ؛ وتقليد النصحاء فيما يفوضه اليهم من الأعمال ، ويكله اليهم من الأموال ، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة .

١٠ — أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور ، وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة،

فقد يخون الأمين ، ويغش الناصح ، وقد قال الله تعالى : « **ياداوود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** » (١) • فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة ولا عذره فى اتباع الهوى حتى وصفه بالضلال ، وهذا وان كان مستحقا عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة فهو من حقوق السياسة لكل مسترع ، قال النبى [ﷺ] « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » •

لم تكن مهمة الخلفاء دينية خالصة ، ولا اقتصرت سلطاتهم — حتى فى العصر الذهبى للخلافة — على الناحية الفكرية والروحية ، فالخلافة هى : الواجهة السياسية التى توضح نظرة الاسلام الى الحياة وموقفه من قضية الوجود ، ودعوته فى المجتمع العالمى •

قرر المجلس الوطنى فى تركيا فصل الخلافة عن السلطة ، فطبع بذلك الخلافة بطابع الروحانية وحصرها فى دائرة السلطة الفكرية الخالصة ، فأصبح مجالها مقصورا على الناحية الروحية ومسائل العبادة ، وهذه صورة لم تعرفها الخلافة من قبل ، ولم يعهدها المسلمون فى خليفة نبيهم محمد [عليه الصلاة والسلام] ولم نقرأ عنها فى تاريخ الاسلام •

أراد الوطنيون ابعاد الخليفة عن المجال السياسى ، فكرسوا جهدهم لتحويل الخلافة الى فاتيكان « أرادوا فتكنة الخلافة » ولكن المحاولة باءت بالفشل ، لأن الخليفة الجديد — وهو ابن آخر سلطان لتركيا — « المعين » لم يقبل هذا التحديد للسلطة اطلاقا ، وعارض اتجاه القوميين الرامى الى عزل الخلافة عزلا كليا عن أمور الدولة السياسية ، وأدى هذا الصدام بينه وبينهم الى هروبه من البلاد • ومنذ ذلك الوقت تيتمت الخلافة لأول مرة فى تاريخ الاسلام ••• نعم تعاقبت على الخلافة العديد من الأسر ، وتولاها رجال ضعاف لم يلبثوا فيها طويلا ، اذ كان ينتزعها منهم من عنده القوة والاستعداد لتولى خلافة محمد [ﷺ]

---

(١) سورة ص : ٢٦ •

على الأمة الاسلامية ، ولم يكن هـذا المنصب شاغرا قط ... الا عندما هرب الخليفة من تركيا والغاء الخلافة نهائيا فى نوفمبر عام ١٩٢٤ .

فجر هروب الخليفة موجة غضب فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، لأن المسلمين اعتبروا هـذا العمل هجوما مباشرا ضد الاسلام ، اذ لا يقوم بالغاء الخلافة وطرد الخليفة الا حكومة تنصلت من الاسلام ، وجعلت فى يدها سيف العداء للعقيدة الاسلامية ، ورسمت مخططها على أساس محو كل ما يقوم على أساس الدين ، ومحاربة الشخصيات التى تستمد منها الجماهير — ولو ظاهريا — شحنات عاطفية يكون لها تأثير فى المجال السياسى ، ولكن سرعان ما هدأ الغضب وخفتت الأصوات المحتجة على قرار الحكومة التركية ، وكان السبب فى ذلك فتوى خرجت من الأزهر — أكبر مدرسة للعلوم الدينية — تقول : ان ما قامت به الحكومة التركية انبثق من مبدأ لا يتعلق اطلاقا بالمسائل الدينية ، بل بأمر قومى يخص الدولة التركية وحدها .

تجاوز الأمر حـدود مفهوم هـذه الفتوى ، وانقطعت الخطوط الأخيرة التى كانت تصل المسلمين بالقسطنطينية فتنوسيت ، وانصرفت أنظار العالم الاسلامى عنها ، وذلك أن أصحاب الفكر ، ورجال القلم تولوا مهمة تغيير مفهوم الخلافة التركية فى عقول المسلمين ، ذاهبين الى أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا — قبل كل شىء — أتراكا ، ولم يكن سلطانهم معترفا به فى كل أنحاء العالم الاسلامى .

خفف هـذا الفهم وطأة قرار الحكومة التركية على الشـعوب الاسلامية ، غير أن كل الدوائر الاسلامية المعتدلة كانت ترى أن الاسلام فقد — بمحو الخلافة من تركيا — رمزا ذا أثر قوى فى الوحدة الدينية والأدبية فى العالم الاسلامى ، ولذا اتجهت الآمال الى اعادة الخلافة بثوب مغاير للخلافة التركية ، وبصيغة غير خاضعة للاقليمية ، بحيث تكون فوق الارتباط بالمصـالح القومية ... بحث هـذا الاتجـاه فى المؤتمرين اللذين عقدا فى مكة والقدس ولم يحققا نجاحا ، ذلك أن

المؤتمرين اختلفوا واضطرب تفكيرهم اضطرابا كاملا حول الشكل الجديد للخلافة ، وحول شخص الخليفة ، وقد أدى فشل هذين المؤتمرين الى طرح المسألة جانبا ، فأصابها ركود فى مجال الرأى العام فى العالم الاسلامى •

لم تنقطع المباحثات السرية بين الزعماء ، وامتد النقاش خلف الكواليس للوصول الى اتفاق حول عودة الخلافة الاسلامية • وكان ابن سعود من أنشط الشخصيات فى هذا المجال ، فهو — بالنسبة لكونه حاكم مكة — يرى أن واجبه الأول — مجاوزا سلطاته المدنية — العمل على أن يعود للاسلام مجده وللمسلمين مكانتهم ، كما كانوا فى عصر صدر الاسلام ، وذلك لا يتحقق الا بوحدة العالم الاسلامى حول رجل واحد ، أى حول خليفة •

ان من يسيطر على الأماكن المقدسة — مكة والمدينة — تراوده الآمال فى انشاء امبراطورية عربية ••• لا ••• بل خلافة اسلامية ، فقد أسس هنا الشريف حسين — والد الملك فيصل الذى يحكم بغداد الآن — والأمير عبد الله — أمير شرق الأردن ، أول دولة عربية مستقلة ، ألا وهى مملكة الحجاز ، وهو مدين فى قيام هذه الدولة لانجلترا ، فقد قدمت له مساعدات لا يستهان بها لاخراج هذه الدولة الى حيز الوجود ، كذلك اعترفت بها القوى الأوروبية ، فاكتسبت وضعا دوليا •

وانطلاقا من وضعه — كملك للحجاز حيث الأماكن المقدسة — أعلن حسين فى مارس ١٩٢٤ اطلاق لقب الخلافة على نفسه ، معتمدا على سيطرته التامة على اقليم حساس بالنسبة للعالم الاسلامى ، ومعتقدا أن سلطته المدنية على الأماكن المقدسة — وكذلك نسبه — تلعب دورا فى جمع المسلمين حوله ، وبذلك يتحقق حلمه ويصبح خليفة المسلمين المرتقب ، غير أن أبهة الخلافة لم تدم سوى نصف عام ، فقد اضطر « خليفة أوبريت الادارة الانجليزية » — كما سماه أحد المؤرخين الانجليز — أن يتقهقر أمام الهجوم الذى شنه ابن سعود على الحجاز ، فبدأت

بذلك نهاية الوضع الذى لم يعترف به أحد على الاطلاق خارج حدود منطقة الحجاز واختفى حسين من المسرح السياسى ، وتلاشى معه صدى ندائه الى « العالم المتحضر » ، وذهب احتجاجه ضد المجاهدين العرب — الذين آزروا ابن سعود — سدى ، ويفسر المراقبون خذلان العرب والمسلمين حسينا بأن وقوفه — أى حسين — مع الأوروبيين وقتاله فى صفوفهم ضد الباب العالى أحدث ردود فعل لدى الرأى العام فى العالم الاسلامى ، فاستنكره كثير من المسلمين ، وفسره البعض بأنه خروج عن الاسلام ، لأنه قتال فى صفوف الكفار ضد المسلمين •

بعد أن اختفى « حسين » انتقل لقب جلالته الى أكبر أبنائه على ، الذى تغاضى عن لقب الخلافة ، فلم يطلقه على نفسه أبداً مكتفياً بصاحب الجلالة ، الا أن مملكته تقوقعت فى المدينة الساحلية جدة • حاول على الاحتفاظ بجدة ، فنشط فى اندفاع عنها ضد هجمات الوهابيين ، غير أنه اضطر آخر الأمر الى ترك الميدان لابن سعود ، الذى مضى على سيطرته على مكة ما يزيد على عام واحد ، وبذلك استقل الوهابيون بالسيطرة على الحجاز •

روادت الآمال ابن سعود فى أن يبنى مملكة فى الحجاز ، ويسيطر على الأماكن المقدسة ، ليؤمنها ، فينال بذلك مكانة فى العالم الاسلامى ، لذا زحف من الصحراء وخاض قتالا للوصـــول الى تحقيق حلمه فى السيطرة على المراكز الدينية للمسلمين ، ولا يوجد أدنى شك فى أن ابن سعود فكر جديا آنذاك فى الأخذ بأسباب عودة الخلافة الاسلامية بتأسيس خلافة سعودية — لفت الانجليزى «أرمسترونج Armstrong » النظر الى الأهمية الجغرافية للمملكة العربية الكبيرة التى يطمح العرب فى تكوينها وحذر منها أكثر من مرة — الا أنه أدرك أن قيام مثل هذه الخلافة لايكون له معنى ، وليس له قيمة الا اذا لقى قبولا لدى الرأى العام فى العالم الاسلامى ، واعترفت بها مراكز النفوذ السياسى والروحى فى الأقاليم الاسلامية ، وبهذا لم يقع فى الخطأ الذى وقع فيه حسين من قبل حين

أعلن أنه خليفة المسلمين ، اذ أنه بعد سنتين من غزو مكة — أى فى صيف عام ١٩٢٦ م — دعا الى عقد مؤتمر فى العاصمة الدينية مكة — للتشاور مع قادة المسلمين فى طريقة حكم الأماكن المقدسة ، وكان يرمى من وراء ذلك الى انتزاع الاعتراف به حاكما على الحجاز ، وفى نفس الوقت يهيىء الجو لاستطلاع الآراء حول امكانية ترشيحه للخلافة •

فشل المؤتمر فشلا ذريعا ، اذ انفض دون أن يتفق المؤتمرون على رأى ، فبان للملك حجم المصاعب التى تقف فى طريق عودة الخلافة ، وأهمها أنه لا يوجد فى العالم الاسلامى كله شخصية لها من الشهرة والمكانة ما يحمل المسلمين على الاعتراف بها خليفة ••• حتى ابن سعود ، فقد تعرض لهجوم شديد من جانب مسلمى الهند بسبب موقفه هو وأصحابه الوهابيين من مسألة الأضرحة التى أزالوها من مكة والمدينة •

لم يثن المؤتمر سيد الجزيرة العربية — الذى أسس بحفنة من الرجال الأشداء مملكة عربية كبيرة ••• من لا شىء — عن عزمه ، ولم يبعده قيد أنملة عن مخططه الذى رسمه لنفسه للوصول الى مبتغاه ، فقد انتهج فى العشر سنين التالية سياسة دعمت سلطانه وقوت مركزه ، وأكسبته سمعة فى العالم الاسلامى — وان لم تبلغ الدرجة التى تمكنه من الوصول الى مركز الخلافة اذا فكر فى ترشيح نفسه — فانه لو طرحت مسألة الخلافة للمناقشة الجادة فلن يوجد أحد فى العالم الاسلامى ينافس ملك الوهابيين ابن سعود •

حدثت أزمة بين العربية الســـعودية ، ومصر اثر حادثة وقعت فى عام ١٩٢٦ م — أى فى العام الذى دعا فيه ابن سعود الى المؤتمر الاسلامى السالف الذكر — وظل التنافر والشقاق سنيناً طويلة بين الدولتين ، ذلك أن التعصب الدينى لدى الوهابيين أدى الى صدام بينهم وبين الجنود المصريين ، الذين رافقوا موكب انحج المزدان بمظاهر الأبهة والعظمة « يتوسطه المحمل » — وهو بمثابة هدية ذى قيمة مادية كبيرة تقدمها مصر رمزاً لتعظيم الكعبة — الذى تعلقت به قلوب الحجاج المصريين

وأبصارهم حباً فى الكعبة ، وشوقا الى رؤية الأماكن المقدسة موطن الاسلام ، ومسقط رأس [1] محمد [ﷺ] .

... أريقت الدماء من الجانبين ، ووقعت ضحايا من كلا الطرفين ، وتطورت المسألة الى نزاع دبلوماسى بين الدولتين ظل محتدما سنين طويلة ، ذلك أنه لم تفكر كلتا الحكومتين فى البحث عن المسئول عن وقوع هذه الأحداث ، ولم تحاول أى منهما التحقيق مع رجالها ومعاقبة من تسبب فى وقوع هذا الصدام . أدى هذا الموقف الى توقف تبادل السفراء — أى قطع العلاقات الدبلوماسية — والاكتفاء بتعيين من يقوم على رعاية مصالح احداهما لدى الأخرى ، كذلك امتنعت مصر عن الاشتراك رسمياً فى موسم الحج .

وقف هذا النزاع مدة عشر سنوات حائلا دون التقارب السياسى بين كلتا الدولتين الاسلاميتين اللتين لهما وزنهما فى العالم الاسلامى ، وأقام العوائق على الطريق الذى يسلكه ابن سعود للوصول الى الخلافة ، فتعثرت الجهود الرامية الى عودة الخلافة ، وخفتت الأصوات المتحمسة لجمع المسلمين حول تأسيس « مملكة اسلامية » يقوم على رأسها خليفة .

فى أوائل عام ١٩٣٦ بدأت لأول مرة — بعد هذه الخلافات التى أدت الى ركود فى بحث مسألة الخلافة — مباحثات جدية بين السعودية ومصر لتنظيف الجو المتوتر بينهما ، ثم استكملت الاتصالات فى خريف نفس العام ، واختتمت بعقد صلح بين الدولتين ، بعد أن استمر نزاعهما عشر سنوات ، وكان لهذا الاتفاق آثار مادية وأخرى دينية ، أما الآثار المادية فقد نصت عليها بنود المعاهدة ، ذلك أن مصر استأنفت القيام بواجباتها ازاء الأماكن المقدسة ، فقد اشتركت رسمياً فى موكب الحج الى مكة ، والتزمت بدفع مبلغ من المال لادارة الحرمين : مكة والمدينة ، أما الناحية الدينية فلن يجدها القارىء مسطرة فى بنود المعاهدة ، أى أنه لم ينص عليها لفظا ، غير أن المهتمين بهذه المسائل يلمسونها بل يرونها

---

(١) مكان مولده .

رؤية ترفعها الى درجة اليقين ، اذ أن أثر هذه المعاهدة تعدى محتواها المادى ، فوضع المعالم على طريق التقارب السياسى بين دولة اسلامية ذات كيان اقتصادى متقدم ، بالنسبة لأقطار العالم الاسلامى ، وبين دولة تملك فى يدها زمام الناحية الروحية ، وبذلك تقارب القلب والرأس — كما يقولون — القاهرة ومكة . . . وبتقاربهما أخذ أهم عضوين مكانهما فى هيكل وحدة المصير الاسلامى .

أحرز ابن سعود من وراء هذا الاتفاق مكاسب لا يستهان بها ، فقد دفعت به خطوات واسعة نحو هدف اقامة خلافة فى مكة ، وزاده اقترابا من هدفه أنه تصالح — نوعاً ما — مع أبناء الشريف حسين ، الذى كان عدواً له بالأمس القريب ، تصالح مع ابنيه اللذين يحكمان دولتين متاخمتين له من الشمال ، كذلك أعاد مسلمو الهند — وهم أشد المسلمين حرصاً على عودة الخلافة الاسلامية ، وأعجلهم فى البحث عن حل لهذه المسألة — النظر فى موقفهم بالنسبة لابن سعود ، دفعهم الى ذلك ما قام به من جهود لاقت رضا وقبولا حسنا عندهم ، وما أحرزه من تقدم سياسى ، قوى مركزه ورفع منزلته ، لدرجة أن زعيم مسلمى الهند على شوكت ، الذى رفض فى مؤتمر الخلافة فى مكة ترشيح ابن سعود لها ، وافق فى عام ١٩٣٦ باسم ٧٠ مليون مسلم فى الهند على قيام خلافة سعودية فى مكة ، وجدير بالذكر فى هذا المقام أن أسلوب ابن سعود فى حكم الحجاز ، وجهوده فى تأمين الطريق الى مكة ، لعب دوراً كبيراً فى تكوين شخصيته لدى الرأى العام فى العالم الاسلامى ، مما جعل كثيراً من الدوائر الاسلامية خارج حدود سلطانه السياسى — أى خارج السعودية العربية — يتعاطفون معه ، ويميلون الى تأييده فى محاولة جمع شمل الأقطار الاسلامية تأييدا يجعله المرشح الوحيد للخلافة التى ينتظرها المسلمون .

لو تتبعنا الصحافة الاسلامية لتبين لنا مدى عاطفة الشعوب الاسلامية نحو الخلافة ، وأنهم يعملون بدون كلل للوصول الى عودتها ، ولكن أى أمل يراودهم فى الخلافة ، وعلى أى صورة يريدونها ؟ يبدو

للمطلع على الفكر الاسلامى فى هذه الآونة ، أن المسلمين يرون فصل الخلافة عن السلطة الدنيوية ، اذ ينبغى أن تكون رمزاً — معترفاً به من الجميع — لوحدة العقيدة ، وعلما للمصير المشترك ، ومناراً تتوجه اليه أنظار كل المسلمين ، ونجما يتلألأ فيكشف بهاء الاسلام ورونقه فى جميع أرجاء العالم ، وينير للمسلمين الطريق لاستعادة مجدهم وسيادتهم على هذه المنطقة الحيوية من العالم ، ويزيد هذا المعنى وضوحاً ما قرأناه فى احـدى الجرائد العربية — قبل أيام قليلة — من المقارنة بين الوضع الذى ينبغى أن يكون عليه الخلافة المقبلة ، وبين وضع ملك انجلترا ، فقد أوضح الكاتب ، أن الخليفة على رأس العالم الاسلامى يشبه الملك الانجليزى على رأس المملكة المتحدة ، اذ ينبغى أن يكون — أى الخليفة — ممثلا لوحدة تتكون من الدول ، التى تنضم مختارة الى وحدة اسلامية ، وتنظم سياستها مع غيرها من الدول الاسلامية على أساس اسلامى ، وتتحرك دوليا فى اطار دينى أخوى ، وبذلك يكون الخليفة قاعدة لقيام وحدة اسلامية ، أو بتعبير أدق : امبراطورية اسلامية ، وهذا الأسلوب من بناء مثل هذا الاتحاد لا يعرف اطلاقا لغة المعاهدات المكتوبة ، ذات النصوص المقيدة للأطراف المشتركة • اذ أن الشعور بوحدة المصير الذى خلقته الأحداث يستمد قوته فى جمع هذه الشعوب من الاشتراك فى العقيدة الدينية ، التى تصهر شعوب هذه المنطقة فى بوتقة الالتحام ، والتقارب ، والتماسك • وذلك أقوى من الرباط القانونى الدولى المعمول به بين دول العالم • نعم هو أقوى من كل بنود الوثائق المكتوبة والعهود المبرمة • • • وعلى ضوء هذه المقارنة — التى قرأناها فى احدى الجرائد العربية — وطبقاً لمـا يفهم منها ، يلاحظ المرء أن الخلافة سوف تصبح — لو قدر لها أن تعود ثانية — أسوبا حديثاً لعالم اسلامى أعاد التفكير فى اعتباره الدولى •

* * *

غرست الوحدة الفكرية الاسلامية الشعور الجماعى بين شعوب هذه المنطقة فنما وترعرع ، وتجاوزت آثاره مجال الحماس العاطفى ،

فظهرت على الصـــعيد السياسى والثقافى ، والاقتصـــادى ، اذ قامت محاولات الاستقلال والحرية ، التى اكتسبت عن طريق العمل الجماعى فى المجالات السياسية ، على درب الكفاح ضد الغرب المستعمر •

ففى عام ١٩٢١ أبرمت أول اتفاقية دولية بين دولتين اســـلاميتين هما : أفغانستان ، وتركيا ، لعبت الحكومة الروسية دوراً ايجابياً فى التوصل الى هذه الاتفاقية • اذ بعد ما وقعت المعاهدة الروسية الأفغانية فى فبراير ١٩٢١ م اجتمع وفد المفاوضات الأفغانى فى موسكو مع وفد تركى ، أرسل الى العاصمة الروسية لهذا الغرض ، وأدت مباحثاتهما الى توقيع معاهـــدة أفغانية تركية فى مارس من نفس العام ، وكان مقر التوقيع موسكو ، ومن بين ما تنص عليه هذه المعاهدة ما يلى :

١ ــ اتفق الطرفان على انتهاج سياسة واحدة بناءة ، بعيدة عن كل ارتباط بالبلاد الغربية ، غير واقعة تحت تأثير تياراتها السياسية •

٢ ــ يكون الطرفان تحالفا يلزم كلا منهما أن يقف بجانب الآخر فى حالة التهديد ، ويحمى بعضـــهما الآخر فى حالة هجوم أى قوة استعمارية غربية على احدى الدولتين المتعاقدتين •

وبهذا تعتبر أول اتفاقية داخل البلاد الاسلامية ــ جددت فيما بعد مرتين ثم اتفق على ديمومتها فى عام ١٩٢٨ م ــ أثرت تأثيرا كبيراً ، بدا فى اتجاه الدول الأخرى اتخاذها نموذجاً يحتذى ، وأثراً يقتفى ، ففى نفس العام ــ بعد الانتهاء من توقيع المعاهدة الروسية الايرانية ــ وقعت معاهدة مماثلة بين تركيا وايران ــ ولعبت روسيا نفس الدور الذى قامت به بين أفغانستان وتركيا ــ تمت بمقتضاها علاقة بينهما تشبه ما بين تركيا وأفغانستان ، وبعد سنتين التقت ايران وأفغانستان على درب التعاون طبقاً لروح كلتا المعاهدتين •

جددت هذه الاتفاقيات عدة مرات فأثرت تأثيراً مصيرياً على سياسة الدول الاسلامية ، وطبعت العلاقة بين تلك الدول بطابع الالتقاء الذاتى ، وحلت مسائل الخلاف فيما بينهم دون تدخل أجنبى ، وأعنى بها تلك

الدول التى مشـــت شوطاً كبيراً على صعيد التعاون السياسى فيما بينها ، اذ حلت مشاكل الحدود ، وسويت المنازعات القائمة بينها دون وساطة أوروبية ، وبعيداً عن عصبة الأمم ، فقد اشتركت لجنة تحكيم تركية فى بحث مسائل الحدود بين ايران وأفغانستان ، وكذلك بين ايران والعراق ، وكانت أراؤها مقبولة من الجميع •

توطدت العلاقة بين تركيا وايران منذ زيارة الشاه للعاصمة التركية فازداد حجم التعاون بينهما ، واقتربا تقارباً جعلهما يسيران فى خط سياسى موحد ويكونان مجموعة ذات قوة فى هذه المنطقة الآسيوية ، كذلك بعث تجديد المعاهدة بين كابول وأنقرة فى عام ١٩٢٨ م حياة وقوة فى العلاقة بينهما عادت على أفغانستان بفوائد جمة ، فقد أرسلت تركيا خبراء عسكريين للاسهام فى تنظيم الجيش الأفغانى ، كما وضـــعت كل ما تستطيع تقديمه تحت تصرف الحكومة الأفغانية لبناء النهضة فى جميع ميادين الحياة فى أفغانستان ، وبهذا ظهرت فى الأفق الدلائل الأولى لمـــا هو أبعد من اتفاقية مشتركة معقودة بين البلدين ، وأكثر من المعاهدات المبرمة بين طرفين • • ألا وهو اتجاههما فى خط سياسى واحد ، يبدو للمراقب أنه اتفاق « وحدوى » ، والوصول الى مثل هذا الاتفاق أمل يراود شعوب وحكام هذه المنطقة ، فقد بدأت منذ عام ١٩٣٢ م جهود تركية ايرانية بعقد معاهدة « وحدوية » يدخل فيها العراق أيضاً ، الذى حصل على استقلاله حديثاً ، لكنها اصطدمت بحواجز عاقت سرعتها وحالت دون التوصل اليها سنوات ، تلك هى :

١ — مشـــاكل الحدود الايرانية — العراقية ، عند شط العرب • حيث يصب دجلة والفرات •

٢ — وضع بغداد السياسى ، اذ كان يتولى الحكم فيها حكومة موالية لانجلترا تسمع لها وتنفذ ما تشير به لندن ، وكانت مصـــالح الحكومة البريطانية تحتم عليها أن تبذل كل ما فى وسعها لمنع تقارب العراق من مجموعة الدول ، التى كونت جبهة اسلامية قوية فى الشمال ، ووجدت سنداً لها فى موسكو •

وفي عام ١٩٣٧ م زالت هذه العقبات التي حالت دون دخول بغداد في حلف تلك الدول الواقعة في شمال غربي آسيا ، اذ في خريف عام ١٩٣٦ م وقع انقلاب في العراق وتولى الحكم على أثره حكومة حاولت — أكثر من سابقتها — أن تحرر نفسها من الخضوع للأوامر البريطانية ، فتتحرك خارج الاطار الذي رسم لسياسة العراق بمقتضى الوصاية الانجليزية ، لذا خطت خطوة نحو التقرب من تركيا — وكانت على وعي مما تفعل — بغية خلق نوع من التوازن مع النفوذ الانجليزي .

وكان في استطاعة لندن أن تقف أمام هذا التحرك ، ولكن دفعها الى السكوت دوافع أخرى ، لقد خلق لها النزاع الأثيوبي توتراً في البحر الأبيض المتوسط فساءت العلاقات بين انجلترا وايطاليا سوءاً ، جعل انجلترا تتمنى أن تتمكن من اقامة علاقة صداقة مع تركيا ، ومع القوى المتحالفة معها ، كي تبعد أنقره من أن ترتبط مع روما ، لأنه لو فرض أن وقع هذا التحالف — تحالف أنقرة مع روما — لزادت قوة المعارضة لانجلترا في النزاع الايطالي الانجليزي . ولهذا تركت انجلترا الحكومة الجديدة في العراق تندفع نحو أنقرة دون مضايقة ، طالما كان الهدف من هذا الوصول الى قيام صداقة تركية عراقية .

أسفرت الجهود عن قيام صداقة بين تركيا والعراق ، وسرعان ما تطورت الى رباط قلبي متين ، وتعاون أخوي صادق ، فانخرط ضباط أتراك في الجيش العراقي لتدريبه وتنظيم صفوفه ، وتلقى العراق مساعدة اقتصادية من تركيا ، وتقرر تكميل بناء خط بغداد الحديدي — أي من المنطقة التي لم تكمل ، وكانت واقعة في وسط المسافة تقريباً — كي تربط تركيا بالعراق ، وابتدأ العمل في وضع القضبان في المسافة الخالية من الشمال والجنوب في وقت واحد .

هيأ هذا الجو مناخا لميلاد المعاهدة التي يخطط لها منذ عام ١٩٣٢ م (بين تركيا وايران والعراق وأفغانستان) ، وخلقت الظروف الملائمة لعقد تلك المعاهدة « الوحدوية » ، بعد أن لعبت تركيا دور الوساطة في

حل النزاع بين العراق وايران حول شط العرب ، اذ لم تمض أيام على تسوية هذا النزاع — تاريخها يونية ١٩٣٧ م — حتى وقعت فى طهران — فى ٩ يوليو من نفس العام — معاهدة بين هذه الدول الأربع ، تلك المعاهدة التى أطلق عليها « الحلف الآسيوى » وقد نص فيها على ما يلى :

١ — تحترم الأطراف الموقعة الحدود القائمة بينها ، فلا يجوز تغييرها •

٢ — تتخذ الدول الأربع موقفاً موحداً فى كل المسائل الدولية التى تمس المصالح المشتركة •

٣ — التنازل عن كل عمل هجومى أو الدخول فى أحلاف هجومية ، وعدم تقديم المساعدة للمعتدى أيا كان نوع هذه المساعدة •

٤ — لا يجوز السماح التنظيمات التى تحتم عليها أيديولوجيتها التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأخرى بممارسة نشاطها فى أى قطر من الأقطار الأربعة •

٥ — مدة المعاهدة خمس سنوات ، وتتجدد تلقائيا لخمس أخرى ، اذا لم تبلغ الدول المعنية رسمياً بالرغبة فى تجديدها قبل انتهاء المدة بستة أشهر •

ويدل البند الرابع على الرفض الواضح للاتجاه المـاركسى ، اذ ينبغى — طبقاً لهذا البند — حظر قيام تنظيمات شيوعية فى مناطق هذه الدول الاسلامية •

وشبيه بهذا الذى حدث فى المنطقة الايرانية التركية — أى فى المنطقة الشمالية من العالم الاسلامى — حدث فى المنطقة العربية ، فقد شهدت هذه المنطقة صراعاً حاداً سنين طويلة ، وسمعت صـدى الخلافات المرة ، تحملها الرياح عبر الحدود بين العربية السعودية ، وبين الدولتين المجاورتين لها من الشـمال — العراق وشرق الأردن — حيث ارتقى العرش فيهما — بمساعدة انجلترا — أبناء حسين ، الذين طردهم ابن سـعود من الحجاز أمس • ولعبت الدبلوماسية الانجليزية دور

المحرض فى هذا الصراع ، اذ كرست جهودها لتعميقه وتوسيعه ، كى تحافظ على مصالحها الخاصة فى المنطقة ، غير أن انجلترا غيرت موقفها فى الثلاثينات من هذا القرن ، اذ سعى السياسيون فى لندن الى تحقيق توازن من داخل البلاد العربية ، ونجحوا فى هذا ، ففى عام ١٩٣٦ م عقد تحالف على جانب كبير من الأهمية بين العربية السعودية وبين العراق ، وصف بأنه منارة تهدى البلاد العربية الى تكوين اتحاد فيدرالى عربى فى المستقبل ، وترك الباب مفتوحاً لمن يريد الانضمام اليه من الأقطار العربية ، فدخلت اليمن بعد سنة من اعلانه ، نتيجة جهود العراق فى هذا الصدد ، وبذلك تكونت كتلة عربية فى هذا الجزء من آسيا ، وأصبح للعراق مركز دبلوماسى هام ، فهو عضو فى التحالف العربى ، وشريك أيضاً فى مجموعة القوة الايرانية التركية ، وقد أملى عليه هذا الوضع أن يبذل الجهود — وساعدته فى ذلك انجلترا — لتقريب كلتا القوتين الاسلاميتين : مجموعة الدول الأربع المتحالفة فى الشمال : ايران ، تركيا ، أفغانستان ، العراق ، ومجموعة التحالف العربى : العراق ، السعودية ، اليمن ، ويعمل عملية التحام بينهما •

فى عام ١٩٣٦ م حصلت مصر على استقلالها بعد توقيع المعاهدة المصرية الانجليزية ، فحاولت الانضمام لهذا التحالف الذى سبقتها اليه دول اسلامية ، وشجعها على ذلك تصفية الجو بينها وبين السعودية — تحدثنا عن ذلك سابقاً — ومن الأحداث البالغة الأهمية فى هذا الصدد — بجانب الجهود التى بذلت للوصول الى مصالحة سعودية مصرية — تقارب مصر وتركيا ، ففى خريف عام ١٩٣٦ — بعد أن وقعت حكومة الوفد المعاهدة فى لندن ، وحصلت مصر على استقلالها وحريتها — كلفت مصر ممثلها فى أنقرة ببدء محادثات مع الحكومة التركية ، بغية الوصول الى تصفية الجو بين البلدين ، وتسوية المسائل المتنازع عليها منذ سنين عدة ، وسرعان ما تجاوزت تلك المحادثات الخطوط التى من أجلها استؤنفت ، ووصلت الى عقد معاهدة صداقة بين تركيا ومصر فى أوائل عام ١٩٣٧ م • وقبل أن يجف مدادها وصل الى القاهرة وفد تركى

لبحث امكانية عقد تحالف عسكرى بين مصر وتركيا ، غير أن هذه المحادثات لم تنجح لأن ظروف الجيش المصرى لم تسمح بمثل هذا التحالف ، اذ أنه كان فى حالة اعداد وتنظيم — ويحصل من أجل ذلك على مساعدة انجليزية — لا تمكنه من القيام بدور ايجابى فى اطار تحالف عسكرى ، ولهذا أجلت المحادثات التى ابتغى بها الوصول الى ترابط مصيرى بين أقوى دولتين اسلاميتين •

لم تحصل سوريا بعد وكذلك شرق الأردن وفلسطين — اللتان ما زالتا تحت الانتداب البريطانى — على هدفها الذى تكافح من أجله ضد الاستعمار الغربى ، ألا وهو الاستقلال غير المشروط بحيث تباشر حريتها السياسية مع المجتمع الدولى ، وعليه فقد ظلت بعيدة عن نظام التحالف والمعاهدات الاسلامية التى تهيىء لوجود وحدة سياسية متكاملة فى العالم الاسلامى ، وليس هناك أدنى شك فى أن هذه الدول — سوريا وفلسطين وشرق الأردن — ان تتوانى فى البحث عن طريق يوصلها الى الالتقاء مع جاراتها ، حتى تجد مستنداً لها بين مجموعتى القوى الاسلامية ، اللتين برزتا الى الوجود فى السنوات الأخيرة ، وسوف تسرع فى الانضمام اذا حطمت حريتها آخر القيود التى تكبلها ، وحقق التنظيم السياسى الجديد فى المنطقة السورية الفلسطينية ثباتا واستقرارا •

أوضحت نظم التحالف الاسلامية ، أن قيامها راجع أساساً الى عاملين هامين :

١ — اشتراك جميع الدول الاسلامية فى مناهضة الدول الأوروبية ، وان تفاوتت مواقفها بالنسبة لدول دون أخرى ، واختلفت نظرة العداء الى الحكومات الأوروبية ، التى تتنافس على توسيع نفوذها فى الشرق •

٢ — تزاحم الدول الغربية بعضها البعض فى الحصول على مكاسب استراتيجية فى هذه المنطقة ، فكل دولة ترسم سياستها على أساس الفوز بمغانم أكثر من غيرها •

فقد تلقت الوحدة الاسلامية ، والترابط السياسى بين الدول التى تدين بالاسلام رعاية من الجانب الروسى ، والانجليزى سواء بسواء ، ذلك أن كلا من روسيا ، وانجلترا كانت تأمل أن تكسب الدول الاسلامية — اذا هى باركت وحدتها ورعت آمالها فى الترابط السياسى — بجانبها ضد الأخرى ، المنافس الكبير لها على ساحة الشرق الاسلامى ، وهكذا أصبح الصراع القديم بين روسيا وانجلترا عاملا هاما فى عودة الارتقاء الاسلامى ، واتجاها حمل معه نفير الانتفاضة الاسلامية ، ولكنه أدى أيضاً فى الوقت نفسه الى ضياع المواد الخام ، الأمر الذى تألمت منه أوروبا على مسرح السياسة العالمية .

* * *

اذا تتبع المرء الصحافة الاسلامية باهتمام ، فسوف تقابله ظاهرة على جانب كبير من الأهمية ، تتمثل فى نشر مثل هذه الأخبار مرارا وتكرارا :

— وصل الى استانبول عميد كلية الطب الأفغانية فى كابول ، للتعاقد مع بعض الأساتذة على العمل فى كليته ، ومن استانبول يواصل العميد رحلته الى أنقرة ، ليشاهد منشآت وزارة التعليم التركية .

— طلب وزير التعليم العراقى من الحكومة المصرية أن ترسل مدرسين للتدريس فى مدارس العراق ، وتلبية لهذا الطلب أرسل ثلاثون مدرسا للعمل فى خدمة الدولة العراقية .

— عينت حكومة الحجاز — عن طريق ترشيح وزارة العمل فى القاهرة — مهندسين مصريين لرصف الطرق ، وسيشرفون على تنفيذ رصف الطريق — الذى وضع مشروعه قبلا — بين جدة والمدينة مارا بمكة .

ربما تبدو هذه الأخبار عادية ، لا تلفت النظر لمن لم يهتم بالتطورات فى هذه المنطقة ، أما الخبراء فيرون أنها — بكثرتها وانتشارها — تحمل طابعا خاصا يشير الى مدى التعاون بين الدول الاسلامية ، اختطته لنفسها

خارج المجال السياسى • وتظهر معالم هذا العمل الاسلامى المشترك فى المجالات الاقتصادية والثقافية ؛ فقد دأبت مصر وتركيا على ارسال الفائض من حاجتها فى قطاع الثقافة — مهندسين ، ميكانيكيين ، مدرسين ، أساتذة جامعات — الى تلك الدول التى لا زالت مفتقرة الى مثل هذه الأيدى العاملة ، فاستغنت عن الخبراء الأوروبيين الذين كانوا يدعون للقيام بهذه الأعمال •

طورت الدول الاسلامية — التى قطعت شوطا كبيراً على طريق التقدم الحضارى ، بوأها مركز القيادة فى العالم الاسلامى — مدارسها ومعاهدها العليا ، وهيأت لطلابها مكانا للدراسة يضارع مثيله فى أوروبا ، بحيث انصرف الطلاب عن جامعات أوروبا ، واتجهوا الى اتمام دراستهم فى الجامعات الشرقية ، أو فى المدارس المهنية فى الدول الاسلامية • ان خريجى الجامعات الشرقية يتقدمون اليوم موكب الطلائع التى تمهد الطريق أمام وحدة اسلامية ؛ فهم يسهمون فى بناء الحضارة والتطور الاقتصادى فى أوطانهم ، ويؤدون الأعمال التى كانت وقفا على الأوروبيين • وفى المجال العسكرى تقدم الدول ذات الخبرة فى الشئون الحربية — وعلى الأخص تركيا — ضباطا ، أعدوا اعدادا فنيا للدول المجاورة المتخلفة فى هذه النواحى ، للمساهمة فى بناء جيوشها الحديثة ، وبذل هؤلاء الضباط جهودا جبارة فى تدريب قوات طعمت بفلول العصابات التى كانت وقود الحروب الأهلية فى هذه المناطق ، وتنظيمها وادخال أحدث ما وصلت اليه التنظيمات العسكرية ضمن برامج تعليمها ، حدث هذا كله فى زمن قصير نسبيا ، فقبل ربع قرن كانت الدول الاسلامية — التى عندها اليوم فائض فى الخبراء الميكانيكيين والمثقفين — ميدان عمل للخبراء الأوروبيين والموظفين الأجانب ؛ ولم يكن لديها معاهد دراسية ، لذا كانت ترسل أبناءها الى المدارس الأوروبية للدراسة والتثقيف •

ازداد التعاون الثقافى والعلمى بين البلاد الاسلامية ، ونشطت حركة تبادل الخبرات بينها ، فقوى الشعور بوحدة المصير ونمت الرغبة

فى تنسيق العمل فى جميع الميادين ، فالأطباء المسلمون يعقدون مؤتمراتهم الطبية فى عواصم الأقطار الاسلامية على التوالى ، وهو يعقد فى القاهرة الآن ، والمهندسون يجتمعون فى أنقرة . . . الخ . ولكى يدرك المرء مدى التعاون فى تطور المنطقة الاسلامية يكفى أن يلقى نظرة على المشروع الذى أعدته مصر ، فقد وضعت مشروعا للاحتفال بالعيد الألفى لعاصمتها ، نصت فيه على ضرورة اقامة معرض اسلامى كبير تعرض فيه المنجزات الاسلامية ، التى تبين للمسلمين مدى التقدم فى مختلف المجالات ، ويرمى واضعو المشروع من وراء ذلك أن يكون المعرض رمزا للتقارب والتعاون بين المسلمين ، وأسلوبا معبرا عن الشعور بوحدة المصير الذى ساد العالم الاسلامى فى الفترة الأخيرة .

أثر العمل المشترك فى المجالات الثقافية والعسكرية على المجال الاقتصادى ، اذ أصبح التعاون فيه هدفا يسعى اليه الجميع ، وظهر نتيجة لذلك روح اسلامية فى حركة التبادل التجارى ، يلمسها المراقبون فى محاولة رجال المال فى المناطق الاسلامية تسهيل المعاملات المالية عبر الحدود بينها عن طريق عقد معاهدات تتيح لبيوت المال فتح فروع لها خارج حدودها الاقليمية ، فتركيا ومصر — اللتان تعتبران أقوى البلاد الاسلامية اقتصاداً — تجاوزتا حدودهما الاقليمية فى انشاء فروع لبيوت الأموال الوطنية ، فالبنك التجارى التركى « Isch Bankassi » أسس فروعا له فى العراق وفى ايران ، والبنك المصرى « بنك مصر » ساهم فى بيوت المال فى سوريا ، وفتح فرعاً له فى السودان وآخر فى السعودية .

فى جميع الأماكن التى نزل فيها رأس المال الغربى — فيما مضى من الزمن — لتنشيط الحركة الاقتصادية ، وتطوير الامكانات التى تقوم عليها الدعائم الاقتصادية ، ينافسه اليوم — بطريقة واسعة وشاملة — رأس المال الشرقى . وكلما مهد الطريق لرأس المال الوطنى اشتد ساعده وقويت منافسته لرأس المال الأجنبى ، الذى يتكبد بسبب ذلك خسارة فادحة ؛ اذ تفضل الشركات الشرقية على الأوروبية للقيام

بالمشروعات التى تدر ربحاً وفيراً ، واذا ما اقتضت الظروف تكليف شركة أوروبية بعمل ما ، توضع لها شروط قاسية تمتص ما يدر عليها من أرباح •

فالعالم الاسلامى الذى وقف حتى وقت قريب موقفا سلبيا من أحداث العالم ، واتخذ مكان المستقبل فى حركة التجارة الدولية والمواصلات العالمية ، يستيقظ اليوم وينشط اقتصاديا ، ويعمل جاهداً على تلبية احتياجاته ذاتيا ، أى يسير على طريق الاكتفاء الذاتى ، والاستغناء عن رأس المال الأوروبى ، وعن الخبراء الغربيين أياً كان مجال تخصصهم • لا يستطيع الانسان أن يدرك هذا التغيير ، ولا يمكن أن يستبين له حجم هذا التقدم ، الا اذا نظر الى الوراء قليلا ، وقليلا جداً ، فعرف أنه قبل ربع قرن كان موظف البريد فى المملكة التركية القديمة أجنبيا ، وكان رأس المال الأوروبى مسيطراً على مجال الاقتصاد فى جميع الأقطار الاسلامية ، تركع أمامه الهامات فى خضوع واستسلام ، وتقدم له الامتيازات فيلتهمها بهدوء ، آمنا من كل عوامل التنغيص ، حتى من النظرات التى ليس لها سوى البريق الذى لا يؤلم •

تنشر الصحف — التى خرجت من تيارات النهضة الجارية الآن فى الشرق — يومياً أخباراً وتحقيقات ، تلقى الضوء على ما يبذل من جهود على طريق التعاون بين الأقطار الاسلامية ، ويحلل المراسلون الأحداث الجارية فى الشرق الاسلامى بروح تشد الشعوب الى الأمل فى قيام وحدة اسلامية ، ولا يملون الكتابة فى شرح العناصر التى تربط بين الشعوب الاسلامية فى كل الميادين ، مما يجعل القارىء المسلم يؤمن بالمصير المشترك بينه وبين أخيه المسلم ، وان تباعدت أقطارهم وتباينت ألسنتهم • وبجانب الصحف تقوم الاذاعة — هذه الوسيلة الحديثة لنقل الأخبار — أيضاً بنصيبها فى تعبئة الرأى العام نحو الهدف المشترك ، فقد قامت لخدمة الشرق الاسلامى ، تجمع شتاته وتصل بين أطرافه لبعث الهمم نحو الهدف المرسوم ، وقد قطعت فيه شوطاً بعيداً تجاوز الحدود الاقليمية ، اذ ترسل الاذاعة التركية برامج يومية باللغة العربية ،

بغية مخاطبة تلك الشعوب بلغتها ، حتى تفهم الأحاسيس المشـــتركة بين الشعبين االذين تربطهما عقيدة واحدة •

بدأ شعار « آسيا للآسيويين » يتحقق فى كل الميادين ، ويمهـد طريق التطور والاستقلال الذاتى • وتحمل الدول الاسلامية هـذا الشعار ، وتتقدم نحو الأمام ، قوية معتمدة على نفسها اعتماداً كلياً ، قاطعة على الاستعمار الغربى كل سبيل ، متصدية لأولئك الغربيين أصحاب الشهوات الاستعمارية ، فى أى طريق سلكوه وأى بلد اغتصبوه •

* * *

obeikandl.com